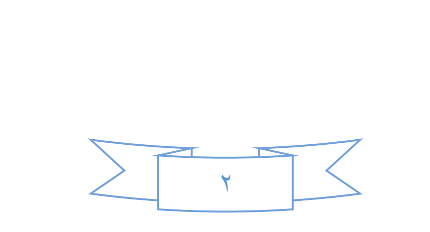
ثلاثة وثلاثين قرن من

تاريخ الامازيغيين

تأليف : محمد شفيق

نُسخة ممتازة من إعداد سالم الدليمي





ثلاثة وثلاثين قرنا من

تاريخ الأمازيغيين

تأليف : محمد شفيق

المقدمة

من الاقوال الشـــائعة التي هي عند عامة الناس بمثابة الحكم الفلسفية أن التاريخ ذاكرة الشعوب. وإذا كان الأمر كذلك، فلا شك أن الشـــعوب تتذكر ما مر بها من العقود والقرون والعصور كمـا يتذكر الأفـراد ما مـر بهم من الأيام والشهور والسنين.

والمعلـوم أن من الأفـراد من له ذاكرة قوية، ومنهـم من له ذاكرة ضعيفـة، لكنهم يلتقون جميعاً فـــي ميلهم إلى زخرفة ذكريات الماضي وتجميلها، وإلى طرح كل ما هو عبء ثقيل على ضمائرهم وإزالة كل غبشـــة تشين صورة أيامهم الفارطة كما يشتهون أن يتخيّلوها. ولهذا يكره الأفراد وجود شـهود صدق على ماضيهم.

ولا تختلف في ذلك الشـعوب عن الأفراد، غير أن بعضها ينشغل بتكاليف الحاضر عن أخبار الماضي، بإستمرار، فتمر به الأزمان تلو الأزمان، إلى أن يقتصر علمه بما سلف من دهره على ما يحكيه له غيره، والغالب أن ذلك "الغير" لا يمكن أن يكون إلّا نداً سبق له أن كان عدوا للأسلاف والأجداد، أو كان لهم خصماً، في أحسن الحالات.

ولعـل الأمازيغيـين خير نموذج لـلأمم التي لم تكـن لها ذاكرة خاصة بهـا، مادامت الذاكرة هي تدوين السيرة الذاتية. فكأن

إســهامهم في صنع التاريخ مع أطراف متعددة متعاقبة، خلال ما يربو على ثلاثة آلاف ســنة، عودهم أن يوطنوا أنفســهم على نســيان الماضي، لأن ذكره، حينما يتكرر، لا ينتج منه إلّا التبجح ونوع من التشبب كالذي يهواه الشيخ الهرِم الكُنتي الفاقد الأمل في المستقبل. والواقع أن التاريخ لا يمكن أن يكون إلّا "علماً تحت الحراسة" [١] لأن البحث العلمي الحق يقتضي من الباحث أن يتجرد من كل ما هو ذاتي في تفكيره ووجدانه. وإذا كان مـــن المســتحيل على المــؤرخ ـ حتى فــي عصرنا هذا المســتوعب لمفهــوم "الموضوعيـة" -أن يتجـرد مـن المشـاعر الوطنيـة، أو القومية، أو الدينية، ومن التصــورات المذهبية، فما بالك بمن أرَّخوا لمجريات العصور الغابرة، إذ كانت العصـبيات، على اختلاف أشـكالها ودرجاتها، هي قوام التماسـك الاجتماعي، وكان التعصب للدين، أو للجنس والعرق، يُعَد بمثابة الفضيلة الاولى.!

إن في موقـف الأمازيغيين تجـاه ماضيهم لنوعا مـن النُبل والشـهامة، فكأن لســان حالهم يقول: فليكن ذلــك الماضي ما كان، إنه لا يهمنا. لكــن فيه أيضــاً نوعاً من الغفلة والســذاجة، مـادام لأقوال النـاس في النـاس تأثير على تصــورات عامة النـــاس وتخيلاتهم وتبلور آرائهم ســواء أكانت تلك الأقـــوال صادقة أم كانت كاذبة. وما أكثر ما قاله النـــاس بخصوص الأمازيغيين منذ فجر التاريخ،

١- هذا عنوان كتاب فرنسي لصاحبه "مارك فيرُو"

Marc Ferro "L'histoire sous surveillance", Editions Calmann -Lévy, Paris, 1985.7 6

والأمازيغيون سكوت. ولعلهم اليوم أحسن الأمم حظاً في القدرة على إستطلاع الحقائق عن غابر أزمانهم بكيفية موضوعية، ذلك لأنهم لم يتيّحنوا لأنفسهم قط فرصة تزييف ولا تزويق؛
عهدتهم في تحليل تاريخهم وتركيبه كلها على من كتبوا في شأنهم بالتوالي إبتداء من عهد الفراعنة الأول وإنتهاء بعهد ضباط "التهدئة الفرنسية"، أي على خصوم تنطبق على رواياتهم لتاريخ الأمازيغيين، أحسن ما يكون الإنطباق، القولة المأثورة المقتبسة من الذكر الحكيم "وشهد شاهد من أهلها" ...
وقد كان أولئك "الأهل" الشهود هم الكَتَبة من المصريين القدماء، ومن اليونان والفينيقيين والرومان والوندال والبيزانتيين والعرب والفرنسيين والأسبانيين.
أما المشهود على أمرهم، فلو لم يزل بعضهم - أو جلهم؟ - يحمل ورقة تعريفه، لأيقنّا أنهم اندثروا منذ زمان، وصاروا جميعاً خبر كان. وورقة تعريف الأمازيغي، في وقتنا الحاضر، هي قدرته على الإفصاح بلغة "الزاي"[1] أو تعاطفه معها، أو عدم تنكّره للأجداد "مُحلّقي الرؤوس، آكلي الكُسكُس، لابسي البرنس" وهو أضعف الإيمان.

١ - حرف (الزاي) من الحروف التي يكثر سماعها في اللغة الأمازيغية، وهو نوعان: زاي مرقق وزاي مفخّم. والتمييز بينهما في النطق والكتابة ضروري، لأن بالترقيق والتفخيم يفرق بين مدلول ومدلول. "ئزي"، بالزاي الرقيقة، هو الذبابة؛ بينما "ئزي" بالزاي المفخمة هو المرارة التي تفرز المرّة. وقد كان إبن خلدون يرسم الزاي الأمازيغية المفخمة صاداً في جوفها زاي مصغرة، أما الناصري (وغيره) فكان يرسمها صاداً، وهي الأصل في أسم "أزيلا" المحرف الآن إلى "أصيلة" والنسبة الصحيحة إلى تلك المدينة هي "الزيلاشي"، بشين تستحق أن يُبحث عن سر ظهورها.

أما من يدعي أنه براء من "الشـلحاء" و"الشـلوح" معاً، فلهُ ذلك، سـواء أَصرَّح أم لمَّح أم أَسَـر، لأنه حر في أن ينتسـب أو يتنسَّب كما يشاء، حر حتى في ترجيح جانب المعرفة الأسطورية على جانب المعرفة العلمية، ما لم يمل إلى فرض معتقداته على غيره، ولم يجعل تنسّـبه وسـيلة للتسـلّط والهيمنة.

الرباط ٨ صُفَر ١٤٠٩ الموافق ٢١شتنبر ١٩٨٨

المؤلف

إمازيغن هم البربر

إمازيغن في اللغة "البربرية" جمع، مفرده: أمازيغ، وهو الاسم الذي يسمي به "البربر" أنفسهم. مؤنث أمازيغ هو تامازيغت، يطلق على المرأة وعلى اللغة، عند قبائل التوارك المنتشرة في قلب الصحراء الكبرى، يُسَكَّن حرف الزاي في "أمازيغ" ويقلب إمّا هاء، وإما شيناً أو جيماً، بحيث تُنطَق اللفظة "أماهغ" عند التوارك الجزائريين، و"أماشغ" عند التوارك الماليين، و"أماجغ" عند التوارك النيجيريين (Ency. Berb IV 563).

كلمة أمازيغ، من حيث صيغتها اللغوية، أسم فاعل، وهي صيغة نادرة لم يوضع على وزنها إلّا عدد قليل من أسماء الفاعل، وهي مشتقة حسب ما هو متوفر من القرائن، من الفعل "يوزغ"

- المنطوق "يوهغ" عند التوارك - الذي معناه غزا، أو أغار. ويرى بعض اللغويين أن "أمازيغ" مُشتَق من فعل آخر أعتبروه مماتا في اللهجات كلها، قد يكون هو الفعل "إزيغ" أو الفعل "يوزاغ"

(Ency.Ber. IV, 566) وهو أفتراض إنبنى على الخلط بين ثلاثة أفعال أخرى، هي "ياغ" بمعنى أصاب أو أعترى، و"ياغ" أو"يوغ" بمعنى أخذ أو نال أو سقط أو أشتعل أو أضاء، و"يووغ" بمعنى رعى في معنى إنتجع، وعلى أي حال، "أمازيغ" أسم مشرب معنى النبل والشهامة والإباء، سواء في المغرب أو عند التوارك

(De Foucauld, II 673) قـد يكـون ذلك ناتجاً من مجرد الإعتزاز بالنفـس من قبـل إمازيغن، لأن الشـعوب تتخذ عـادة أنسـابها عنواناً للعزة والمناعة، وهو ما نعتقده.

تسـمية "البربر" أنفسـهم بـ "إمازيغن" ضاربـة في القدم، وبهـا عرفهم أقدم المؤرخين، وعرفهم بهـا أقرب جيرانهم إليهم، وهـم المصريـون القدماء، مع تحريف لأسمهم في النطق، ثم في الكتابة، له مبرراته اللغوية.

كان المصريـون القدماء في عهد "راعامسـيس" الثالث يسـمونهم "ماشـوش" لأن اللغة المصريـة في ذلك الوقت كانت تقلب الزاي شـيناً، والغين شـيناً أيضاً، بعد قلبه خاء، وتفصل في الكتابة بالواو (بواو فارقة) بين الحرفين المتجانسين

(Grammaire, 27,28,29) وقـد ذكر المؤرخ اليونانـي هيكاتايـوس Hekataios إمازيغن في القرن السـادس قبـل الميلاد باسـم "مازيـس" Mazyes وذكرهـم هيروضـوتوس Herodotos في القرن الخامس ق. م. بأسم "ماكسييس" Maxyes .

أما المؤرخـون اللاتينيون فقد أوردوا الأسـم نفسـه محرفاً إلى "مازاكـس" Mazax أو Mazaces أو إلى "مازيكـس" Mazikes وهـي أسـماء جمـوع (Collectifs) بمعنى واحـد، أطلقوهـا على "الشـعـب النوميـدي". (Dictionnaire latin, 956) ويظهر أن أول قبيلـة أمازيغية كبـرى أحتكت بقدماء المصريـين إحتكاك حرب(١٢٢٧ق. م) كانت تسـمى "ليبو" وكانت مسـتوطنة لأراضي ليبيا الحالية (Berbères عن هيروضوتوس، ١١) وقد اختلط الأمر على المؤرخين الأوَل، ومنهم هيروضـوتوس، فصـاروا يسـمون إمازيغن تارة بأسمهم هذا محرفاً قليلاً أو كثيرا، وتارة باسم "ليبيا "Libye

الــدال في شـعـر هوميروس Homeros علــى الأراضي الممتدة مــن تخوم مصر القديمة شــرقا إلى المحيط غربــا (grec, 1190 Dictionnaire). ولما أنشــئت المستعمرات الفينيقية على شواطئ أفريقية الشــمالية وإزدهرت ولفتت أنظار اليونان والرومان إلى

الســاحل الجنوبي للبحر المتوســط، أخذ الكتاب الأغريق واللاتينيون يســمون الأمازيغيين عامة بـ "الأفارقة" ويصنفونهم إلى ليبيين ونوميديين وموريين، إنطلاقاً من الشــرق وإنتهــاء بالمغرب. وكان منهـم من يخلـط بين هذه الأسماء (Le Maroc Scylax chez les auteurs anciens) في

ص١٨ و Cesar في La guerre d'Afrique ص٤) فصاروا يسجلون أسماء المجموعات القبلية الأمازيغية بشــــيء من التفصيل، يصعب، بل يتعذر اعتمـاده في ترتيـب تلـك المجموعـات من حيـث أحجـامها ولا من حيث إستمرارية وجودها في الزمان حاملة أسـمها الأول، ولا من حيث انتشــارها فـي المكان، وذلك نظراً لما طرأ من تحريف في النطق والتسـجيل، مـن جهة أولـى، ولكون تلــك القبائل تتألف فـي معظمها من عشــائر البدو الرحل، من جهة ثانية، ثم نظراً لأعتبار أمر لابد من إعتبـاره هو أن من المحقـق في ضوء ما هو ملحوظ إلى يومنا هذا،

أن المترجمين للقبائل عن ســــماع عبر الزمـــــان أو عبر المكان، كثيراً ما يخلطون بين الجزء والكل، من جهة ثالثة. وعلى سـبيل الأشـارة لا الترجيح نستعرض هنا أسماء القبائل الأمازيغية القديمة كما إســتقرأها الأســتاذ ديزانج Desanges في تعليقه على بلينيوس الأكبر

(Histoire Naturelle,V) مجتهداً في رسم خريطة لمواطن كل قبيلة:

١ - حسب ديزانج كانت قبيلتا "ماسايسيلي أو ماسـايسـولـي Masaisuli, Masaesyli"،

و "بانيورايي Baniurae" تستوطنان شمالي المغرب الأقصى بين المتوسط شمالاً والمحيط غرباً ونهر سبو جنوباً، وكانت قبيلة "أوتولولي Autololes" منتشـرة في السـهول الأطلنتية بـين بوراكراك وتانسـيفت الحاليين. وكانت قبيلة "كاناري Canarii" نازلة بناحية فيكيك الحالية.

٢ - وفي المغرب الأوسط كانت القبائل النوميدية Numidia مسـتقرة أو شبه مستقرة في شـرقي البلاد، بينما كانت قبائل كايتولي Gaetulia" تنتجع في الأنجاد العليا

Les Hauts Plateaux وقبائل "أيثيوبيا Aethiopia" تشغل المنطقة الممتدة جنوب الأطلس الصحراوي .

٣ - وفـي تونـس الحالية كانـت القبائل النوميدية نفسـها منتشـرة في غـربي البلاد من السـاحل المتوسـطي إلى ناحية القيروان الحالية، ممثلة أحسن تمثيل في قبيلة "ماسـيلي Massyli, Massili» " أو "ماسـولي Massuli" المنطوق أسمها هكذا بسين مُضعّفة بإعتبار النطق الفرنسـي والمنطوق أسمها، حسب ما نُرجّح "مازولـي" أو "مازيلي" بالزاي، لأن السـين المضعّفة كانت بمثابة الزاي، عند اللاتينيين قبل تبنيهم Y و Z اليونانيين

، (Traité de grammaire,33) أما أراضـي " زاوكيتـانا أو زاوغيتـانا Zeugitana" و "بيزاكينا أو بيزاقينا Byzacena" فكانت خاضعة للنفوذ القرطاجي، قبل الإحتلال الروماني لها .

٤ - وفي ليبيا نجد، حسب ديزانج قبيلة "فازانيي Phazanii"

من الجهة الجنوبية الغربية للجبال المعروفة الآن بجبل نفوسة، ثم نجد بالتتابع على مقربة من الساحل المتوسطي، وإنطلاقا من الغرب تجاه الشرق، قبيلة "ماكايي، أو ماقايي أو ماغايي Macae" فقبيلة "ناساموني Nasamones" فقبيلة "مارماريداي Marmaridae" فقبيلة "ماريوتاي Mareotae" وهي الأخيرة من جهة الشرق، تمتد مواطنها إلى بحيرة قرب دلتا النيل كانت تسمى بأسمها. وفي عرض الصحراء الليبية، حيال الخليج من جانبه الغربي، كانت توجد مواطن قبائل "كارمانتي، أو غارامانتي، أو جارامانتي Garamantes" .

من المعلوم أن المغرب الأقصى مع الجزء الأكبر من المغرب الأوسط كان يُعرف عند اليونان باسم "ماوروسيا Maurusia" هم الذين سمّوا هذه المنطقة بهذا الاسم لأول مرة، فأخذه عنهم الرومان وقالوا "ماوريتانيا Mauritania" وهنا يجب لفت النظر إلى أن الاسم اليوناني Maurusia قريب من حيث مادته اللغوية من الفعل الاغريقي "ماورسو Maurso" الذي معناه "أظلم". فهل معنى ذلك أن اليونان كانوا يقصدون بـ (ماوروسيا Maurusia) أرض الظلمات، لأن الشمس تغرب فيها بالنسبة إليهم؟ وهل لذلك علاقة بما كان العرب يسمونه "بحر الظلمات"؟ هذان سؤالان يستحقان أن يبحث عن جواب لهما.

أما الجزء الشرقي من المغرب الأوسط وما يليه من غربي تونس الحالية، فكان يسمى "نوميديا Numidia" وكانت الأراضي المحاذية للشاطئ المتوسطي شرقاً وشمالاً تسمى "أفريقا Africa" والنسبة إليها في اللاتينية هي "آفر Afer" المجموعة على



زعماء قبائل أمازيغية كما رسمتهم ريشة فنان مصري حوالي سنة ١٣٠٠ قبل الميلاد.

عُثر على الرسم في ضريح الفرعون ستي الأول (من الأسرة التاسعة عشرة)

"أفري Afri" فيما يهم الأناسـي، و "أفريقانوس Africanus" أو "آفريقـوس Africus" في الشعر خاصة، فيما يهم الحيوانات والأشياء.

(Dictionnaire français-latin, 59) . وبقدر ما يمكن الفصل بأن أسمي "ماوريتانيـــا، Mauritania" أو ماوروســـيا Maurusia" و "نوميديـــا Numidia" ليســا أمازيغيين، بقدر ما يمكـــن ترجيح أن هذه الألفـــاظ الثلاثة "آفـر Afer" و "أفريقوس" أو "أفريغـوس" أو "أفريكوس Africus " تنتمـي من حيث صيغتها إلى الحقل اللغـوي الأمازيغي، وحتى من حيـث مدلولاتها. لكن لا سـبيل إلى الجزم في الموضـوع، لأن اللغة اللاتينية كانت تلحق بالأســماء زوائد إعرابيــة متغيرة، تظهر حينــا وتختفي حينا، من جهـة، ولأن حـروف الهجاء فـي نظـام الكتابـة اللاتينية تطور عددها مـع الزمن، فتغيرت رمزية بعضهـا الفونولوجية (Traité de grammaire, 33) ولهـذا السـبب، وللأسـباب الأخـرى المذكـورة آنفا، يـكاد يتعذر على المؤرخ حاليا أن يقارن بين أســماء القبائــل الأمازيغية التي وردت في المؤلفـــات اليونانية واللاتينية القديمة، وبين أسـماء القبائل التي عددها ابن خلدون في عصره، إلّا أن أسـم قبيلـة "لواتا" الشـهيرة أورده بعـض كتاب الاغريق واضحـاً لا غبار عليـه: "لـواتـا" أو "لواتــاه Louâtah" كمـا ذكروا أسـم "إفوراقس" أو "إفوراغس، أو إفــورن Ifuraces" الذي يمكن أن يشـخص في "إفوغاس" التوارك، أو فـي "يفرن" (Les Berbers، Fournel, 98..103).

ويجـوز أن نتسـاءل:

هـل من علاقـة بين "كاناريي Canarii" والجزر الخالدات؟ أو بين "أوتولولي Autololes"و "والال، أيت والال"؟ وبين "كايتوليا Gaetulea" و"كودالا"؟

وبين "مازيلي، مازولي Massili, Massyli, Massuli" و "مزالا، أيت مـــزالا، إمزيلن"؟ وبين " زاوكيتانا، زاوغيتانا، Zeugitana" و "زواغا، ئزكاغن"؟

وهل لإســـم "فازاني Phazanii" صـــلة بنفوســـة، أو على الأرجح بالفزان الحالية، التي عُرفت عند التوارك بأسم " تاركا"؟

(Dictionnaire Touareg, IV, 1588) أمـــا "بانيورايي Baniurae) فقـــد أقترح باحث مغربي أن نشخصها في "بني واراين: إلّا أن ذلك مُستَبعد، لأن الاسم الأمازيغي لهذه القبيلة هو "أيت واراين" وفي العهد الاسلامي تُرجِمَت "أيت" إلى "بني"

سبب تسمية

أمازيغ بـ "البربر"

كانت الشعوب قديماً قليلة التواصل بينها، وكانت تعتبر أن من لا يُفصِح عمّـا يُريد فـي لغتها هـي لا يمكـن أن يُنعَت إلّا بالعُجمـة، أي بالخَـرَس والبَكامة. ولـذا كان للعرب عجمهم، ولليونـان عجمهم، هـم "البارباري Barbari" وكان للأمازيغيين عجمهـم أيضا، هـم"إكناون" وقد لزمت هذه التسـمية بعض شـعوب أفريقية الغربيـة، فيما تفرع عنها من أسـماء البلدان، كغينيا وغانا، اللتين كان يُنسَب إليها في المغرب بـ "كناوي، عبد كناوي" والغين في غانا وفي غينيا مقلوبة عن الكاف المعقودة. ولا تزال فئة من سـكان المغرب الذين هم من أصل زنجي يسـمون "كناوا" أما اللفظة الأمازيغية الأصـلية فهي «أكناو» التي تُجمَع على«إكناون» ومعناهـا الأعجم، الأبكم، الأخرس... كان اليونان اذن يطلقون أسم Barbari على غيرهـم من الشـعوب، بدءاً باللاتينيين. ولما أخذه عنهم الرومان صاروا يسـمون به كل شعب خارج عن المجال الحضـاري اليوناني اللاتيني (Dictionnaire latin،207) فمن المحقق إذن أن الأمازيغيين كانوا «بارباري Barbari» في نظـر الرومان، وكانوا يُنعَتون بذلك النعت، لاسـيما أنهم قاوموا روما مقاومة شديدة، حربياً les Berbères (Rome et) وثقافياً

ولاسيما أن جل قبائلهم ظلت خارج المناطق (la Résistance Africaine) الشمالية الخاضعة للنفوذ الروماني. فلزمهم طيلة عهد الرومان. وكان من الطبيعي أن يلزمهم طيلة عهد السيطرة البيزانتية على مدن الساحل المتوسطي الجنوبي، بما أن«الروم» أي البيزانتيين من ورثة الأمبراطورية الرومانية.

وعند الفتح الاسلامي، أخذ العرب عن«الروم» كلمة «بارباري،Barbari» وجعلوها «بربر» ولقد ظل الافرنج، أي الأوروبيون يسمون أفريقية الشمالية «بارباريا، Barbarie, Barbaria» أو «الدول الباربارية، Etats Barbaresques» إلى أوائل القرن التاسع عشر الميلادي.(Dictionnaire Robert) ولما إحتكّوا بأهالي المغرب والجزائر الناطقين بالعربية العامية، سمعوا منهم أسم «لبرابر» منطوقاً براءين مرققتين ونقلوه إلى لغاتهم في شكل Berbères أو Berbers

وما سوى هذا من التفسيرات التي ذهب إليها بعض المؤرخين العرب متكلف ليس له ما يثبته بالاستدلال والمنطق.

إن كل ما روي من الأشعار العربية في موضوع نسب «البربر» وإلحاقهم بقبائل العرب، من مضرية وقحطانية، لم يكن مبنياً على معرفة مضبوطة، وإنما كان صادراً عن رغبات سياسية كانت تراود نفوس العرب و«البربر» معاً، والدليل على ذلك أن شعراء عرباً آخرين حاولوا أن ينسبوا إلى «العروبة» شعوباً أخرى غير«البربر» فقالوا في الأكراد مثلا لسان العرب، لإبن منظور، مادة: كرد :

لعَمرُكَ ما كُرد من أبناءِ فارسٍ *** ولكنه كردُ بن عمرو بنَ عامر

وعلـى أي حـال لقد تجاهـل الأمازيغيـون أسـم «البربر» في لغتهـم طوال العصور، واحتفظوا بأســمهم الأصلي «إمازيغن» ولم يُتَقبّل منهم أســم «شـلوح» الذي سُـمّوا به في المغرب ـ وربما لأن بعض قبائلهم كانت تقطع الطرقات على المســافرين ـ إلّا ســكان غربي الأطلس الكبير وســوس، يســمون أنفســهم «إشـلحيين»، مع الإفراد على «أشـلحي»، لكن لوحظ عندهم في العقدين الأخيرين أنهم يفضلون أسم «إمازيغـن» ومما يجب ذكره أن لفظة «أرومي» أي الرومي أو الافرنجي في اللغة الأمازيغية محملة في أصل مدلولها بمعنى القســاوة وإنعدام الرأفة، توازي فــي ذلك كلمة «بارباري Barbari» الرومية. ولهذا

التوازي إمتداد فيما تُسـمى به ثمرة الصبار الشـائكة القشـرة المعروفـة عند المغاربة بــ«كرموص النصـارى» أي «تين الأفرنج» وعنـد الفرنسـيين «Figue de Barbarie» أي «تين بلاد البربر» وقد أخذ المشـارقة اليوم لفظة «بربر» barbare عن الأوربيين

مباشـرة بما أشـربت من معان، فقالوا «أعمال الصـهاينة البربرية» وما إلى ذلك، وسموا ثمرة الصبار بـ«تين البربر» (Agricultural terminology)

ولقـد كانت، من جهة الأمازيغيين فـي القديم، ردود فعل على ما سـموا به بعد الفتح الاسـلامي من التسـميات، فلقبوا العرب بــــ«إكزام» المعاول، و«إكشــــــوضـن» الحطب، و«إزاكارن» الشُـرَط، جمع شــــــريط، و«إخامخامن» الصُحل. وكان الأمازيغي يروي عن

إشــعار القوم أن جليســهم العربي يفهم «البربريــة» بقوله «هات يتشا يوجضم» لقد أكل الهندباء!

أصل أمازيغ

كتـب الكثير فـي هذا البـاب، وملخص ما كتـب أن المؤرخين العرب كادوا يجزمون، في العصر الوسـيط، أن «البربر» من أصل يمانـي، أي مـن «العرب العاربة» الذين لم يكن لهم قط عهد بالعُجمة، وعلى نهجهم سار المنظرون للاسـتعمار الفرنسـي الاستيطاني في القرن الماضي وأوائل هذا القرن، فأخذوا يتمحلون البراهـين على أن «البربـر» أوربيو المنبت، خاصة الشـقر والبيض منهـم. ومن الواضـح أن الحافز في الادعاءين كليهما سياسي، سواء أكان صادرا عن حُسن نية أم كان إرادة تبرير للاستيطان.

ومع تراجع الاستعمار الاوربي عن أفريقية الشمالية، أخذت هذه المسـألة العلمية تفرض على الباحثين كل تحفظ لازم، لاسـيما تجاه المصـادر المكتوبة مـا لم تدعهما معطيات أخرى أكثر ضماناً للموضوعية. وقـد عمل بجد، خلال الأربعين سـنة الأخيرة، على إسـتغلال الامكانيات الأركيولوجية والأنثروبولوجية واللسنية في البحث عن أصل الأمازيغيين، أو عن أصول المغاربة على الأصح.

والنتائـج الأولى التـي أفضت إليها البحوث أن سـكان أفريقيـة الشـمالية الحاليـين، فـي جملتهم لهم صلـة وثيقة بالانسان الذي إستقر بهذه الديار منذ ما قبل التاريخ، أي منذ ما قدر بـ (٩,٠٠٠)سـنة، من جهة، وأن المد البشري في هذه المنطقة،

كان دائماً يتجه وجهة الغرب إنطلاقا من الشرق، من جهة أخرى،
(Berbères, Camps 44) وبناء على هـــذا، يمكن القول إن من العبث أن يبحث لـــ«البربر» عن مواطن أصلية غير التي نشأوا فيها منذ ما يقرب من مائة قرن. ومن يتكلف ذلك البحث يســتوجب على نفسه أن يطبقه فــي التماس«مواطــن أصلية» للصينيين، مثــلاً، أو لهنود الهند والســند، أو لقدمــاء المصريــين، أو لليمانيين أنفســهم وللعرب كافة، ليعلم من أين جاؤوا إلى جزيرة العرب. وكل ما يمكن تأكيده اليوم، فيما يرجع للقرابة القديمة المحتملة بين إمازيغن واليمانيين، يكمن في قرائن ثلاث:

أ- عــدد لابــأس به مــن أســماء الأماكــن التي توجــد على الطريــق البري الواصــل بين المغرب الكبير وبــين اليمن عبر القارة الافريقية، لها صيــغ أمازيغية واضحـــــة ولبعضها مدلولات في اللغة "البربرية". منها في صعيد مصــر: أبنو، وأســيوط، وأخميم، وتيما، وتالا، وأصــوان (أســــــوان)، وتوشكا... وفي شمالي السودان:

تاراكما، وأتبارا، وتيمرايين... وفي إيريتريا:

أكســوم، وأســمارا، وأكولا، وأكوردات أو أكورضــاد... لكن، لا يوجد في اليمن نفســها، حســب ما هو مرســوم في الخرائط العادية، أسماء أماكن من هذا القبيل، إلّا أســم جزيرة "أنتوفاش" أيرجع تســلســل الأســماء السالفة الذكر على الطريق القارية الرابطة بين أفريقية الشــمالية وبين اليمن إلى عهد هجرة قديمة تركت آثارها في الأصقاع التي عبرتها؟ أم يرجع إلى قرابة بين اللغة الامازيغية وبين المصرية القديمة واللغات الكوشية ؟

ب - لقد عثرت شـــخصياً على عدد من الالفاظ العربية التي قال بشـــأنها صاحب «لسـان العرب» إنها «حمريـة» أو « يمانية»؛ وهي ألفـاظ لها وجود فـــي الامازيغيـــة، إما بمدلولهـــا «الحِميَري» وإما بمدلـــول معاكس، وكأنها إنقلبت إلى أضـــدادها. لكن عـدد هذه الألفاظ قليل لا يســمح بجزم في الموضوع، إلّا اذا تمت دراسة مقارنـــة ميدانيـــة بين اللهجـــات الأمازيغية واللهجـــــــات اليمانية الحالية من حيث معطياتها المعجمية والصـــرفية والفونولوجية.

ج - بـــين حـــروف « تيفينـــاغ» ، القديمـــة منهـــا والتواركية، وبين حـــروف الحميريين، شـبه ملحوظ في الاشكال، لكنها لا تتقابل فـي تأدية الأصوات، إلّا في حالتـــين أثنتين بتجاوز فـــي التدقيق (مراســـلة شـــخصية بيني وبين الباحث الفرنســـي "كريستيان روبـــان" Christian Robin محرر الفصل الخاص بحضارة جنوبي الجزيرة قبل الاسلام في l'Arabie du Sud).

ولعـــل طريق البحث في هذا الموضوع ســـيختصر في العقود الاولـــى مـــن القرن المقبـل، أو قبلها بقليـل، لأن وســائل المقارنة الانثروبولوجيـــة بـــين الشـعوب أصبحـت جـدُّ دقيقـة بفضـل الاكتشـافات الاخيرة التي حققها العالمان «جان دوصي JeanDausset»

و «جـــان بيرنار Jean Bernard» المتخصصان في فحص الكريات الحمراء على مسـتوى أشـكال سـطوحها. ولقد تمكن هـذان العالمان من اقتفاء آثار شـعوب هاجرت مواطنها الاصلية منذ خمسة عشر ألف سنة

(Le sang et l'histoire)

الأمازيغيون في العصر التاريخي القديم

وما قبل الإسلام

١ - أستمرارية تعرض المواطن الأمازيغية للهجمات الخارجية :

لا يعتقد أن من بين الامم أمة لم تتعرض قط للهجمات الخارجية. ولا يعتقد أن من أصقاع المعمور ما لم تتوال عليه دفعات الاستعمار البشري إلّا ما كان منها قاحلا لا خير فيه، أو غير قابل للاستيطان من جراء مناخه وإختفاء تربته تحت الجليد.

لكن تتابع الهجمات الخارجية على مواطن الأمازيغيين في جل حقب التاريخ قد لفتت إنتباه المؤرخين. ولعل سبب تعرض «البربر» لها راجع لعاملين متفاعلين. **أولهما:** أنه نشأ على الضفة الشمالية الشرقية للبحر المتوسط حضارات مادية ازدهرت بفضل عوامل متعددة، فبادرت الشعوب التي استفادت منها إلى الانتشار خارج معاقلها مزودة بعدتها وعتادها وبتجاربها.

وثانيهما: أن الامازيغيين كانوا، إذ أخذت تلك الشعوب في الانتشار، على حال من الضعف المادي والاجتماعي والسياسي،

له ما يبرره كما سنوضح من بعد؛ فاحتكرت تلك الشعوب فرص المبـادرة منذ البداية، وظل الامازيغيون في موقف المدافع على مر القرون.

ومن الطريـف أن يبدأ اتصال الامازيغيـين القدماء بالاجانب الأول الذيـن اسـتأذنوهم فـي مسـاكنتهم، بابتسـامة مغرية ترضّـت بها أميـرة فينيقية زعيمـــاً أو ملكاً «بربريا»، حســـب ما نقلته إلينا الأســـطورة في بعض تفاصيلهـا(Trois mille ans، 30) كان ذلـك الزعيـم الملـك هو «ياربـاس» Iarbas حسـب ما رواه المـؤرخ اللاتيني «يوسـتينوس Iustinus» فـي القرن الثاني الميــلادي، نقلاً عــن غيــره (l'Afrique du Nord, 68) وكانت تلك الأميرة هي«أليسـا» Elissa الشـهيرة، المعروفة باسم «ديدون» Didon أيضـا. فإن كانت هذه الأسطورة تدل على شيء، فإنما

تـدل على أن الأجانـب الأول الذين قدمـوا أرض «البربر» قَدِموها مسـالمين مستضيفين، وعلى أن مضيفيهم كانـوا في حاجة إلى معونتهم. وبالفعل كان الأمازيغيون في حاجة إلى وســـطاء بينهم وبين غيرهم في التجارة وشـــؤون البحـــر، وكانوا في حاجة إليهم في مــا يصنع من الادوات والآنية والملابـــس وغير ذلك.

ومما لا شـــــك فيه أن الأمازيغيين عرفوا فينيقيين آخرين قبل «إليسـا» ومرافقيها، وأنهم تعاملوا معهم في المبادلات. وما قدوم «ديدون» وتأســـيس قرطاجة حوالي ٨١٤ ق.م إلّا تكريس لعلاقات سابقة بـــين مجتمع رعوي إنتجاعي وبين وفود من التجار والصناع. لكن تأسيس قرطاجة وغيرها من المراكـز التجارية الفينيقية الأخرى على ساحلي أفريقية الشمالية ستكون له مضاعفات لم يكن

الأمازيغيون يريدونها، ولم يتصـرف القرطاجيون التصـرف الكفيل بتلافي وقوعها، أو بإحتواء مفعولها. لقد ظلت العلاقات طيبة بين القرطاجيين و «مضـيفيهم» ما دام دورهم ينحصـر في التبادل والمتاجرة، أي طوال ثلاثة قرون ونيف. ولما أخذت أنظارهم تتجه إلى الاراضـي الداخلية، وصـاروا يستعمرون المنطقة المحيطة بمدينتهم، تغير الوضع شـيئاً فشـيئاً، إبتداء من أواخر القـــرن الخامس قبل الميلاد. وليس من المجازفة أن يُقال إن التعاون الأمازيغي القرطاجي، لـو بلغ مداه في المجالين السياسـي والحربي، كما بلغه في المجالين التجاري والثقافي، لغير مجرى التاريخ قليلاً أو كثيراً.

لكـن واقـع الأمر هـو أن التعايش السـلمي انقضـى عهده بسـبب رغبة قرطاجة في التوسـع خارج مجالهـا البحري الذي منحـت إياه عن رضى. فنشـبت بينها وبين الأمازيغيين تحرشـات إبتـداء من مطلع القـرن الرابع قبـل الميـلاد. فحاصروها حصاراً شـديداً سـنة ٣٩٦ق.م. واسـتغل الصقيليون كل فرصة لأغراء أحد الطرفين بالآخر (les Berbèrs, 44,45,46 نقلاً عن Diôdoris و Polubios وغيرهمـــا). وتطورت التحرشـات إلى عداء وتباغض. فثـار على قرطاجة جيشـها، المؤلف فـي أغلبيته مـن«البربر»، بقيـادة «ماظـوس» Mathos سـنة ٢٤١ق.م، ولـم تَعُـد المياه إلى مجاريها إلّا بعد ثلاث سـنوات من التناحر، سيطرت إثرها قرطاجة على الموقف. فشارك الامازيغيون في الحرب ضد روما ـــ الحرب البونية الثانية - وحقق حنبعل، بفضل قوتهم الحربية، إنتصاراته الخالدة، في شبه الجزيرة الايطالية. فلم يخف على الرومان دور «البربر» في تلك الانتصارات كما يشهد على ذلك

قول «تيتوس ليفيــــوس Titus Livius» إن ســــيوف النوميديين هي التي فصلت الفصــــل النهائي في معركة قناية ،«Cannae Les Berbers (فــــي صــدر الكتـــــــاب) لكن الأحقاد بين الامازيغيين والقرطاجيين كانت قد تسربت إلى أعماق النفوس: فاستغلها الرومان بحنكتهم المألوفة ووجدوا طريقهم إلى الاحتلال التدريجي لمناطق أفريقية الشمالية المحاذية للساحل المتوسطي وما أتصل بها من الاراضي الداخلية، كما هو معلوم.

وهنـا تجدر الاشــارة إلى أن الجزء الشــرقي من الســاحل لم يســلم مــن التدخل الأجنبي.

ففي القــرن الخامس قبــل الميلاد، بينما كانت قرطاجة تنشــر نفوذها في غربي الحوض المتوسطي، كان اليونانيــون يتحيفــون الاراضــي الأمازيغيــة قطعة قطعة فـي الضـفة الجنوبيـة المتقابلة مع بلادهـم. فقاومتهم القبائل الامازيغية الليبية «ناســامونيس» بقيادة ملكها - أو زعيمها - ـ"أدريــكان Adrican"لكنهم مع ذلـك، تمكنوا من إحتلال مواقع بحريـة، في مـا هو معروف الآن بــ «برقة» وأســـــوا مجموعة من الموانئ أسموها «المدن الخمس» Pentapolis فازدهرت حضارتهم فيها ازدهارا ملحوظا، لا ســيما بعدما عزز الاســكندر المقدوني، بفتوحاته، مكانة اليونان عامة، في شرقي حوض المتوسط. ومن أسـماء «المدن الخمس» علـق بذاكرة التاريخ، بوجه خاص، أسـم «قورينا» Cyrenae ثم أسم «بيرينيشي» Berenice التي كانت مشـــيدة على موقع «بنغازي» الحالية. وفي «قورينا» ولد الشاعر اليوناني المشـــــــهور «كاليماخوس» Kallimakhos الذي تغنّى في إحدى قصـائده بجمال «الليبيات الشقراوات» ولعل تعامل أولئك اليونانيين مع القبائل الأمازيغية المحيطة بـ «المدن الخمس» كانت تجارية قبل كل شيء. لكن،

على ما يظهر، قد تم بين العنصرين، الأمازيغي واليوناني نوع من التمازج الثقافي الديني، بما أن عبادة الإله الليبي «أمون» Ammon الذي كان معبده الأكبر بواحة «سيوا»، تسربت، على طريق «أرض قورينا، Cyrenaica» إلى القارة الأوربية، وأنتشرت هناك، حتى في الأوساط الراقية (Histoire générale ... I, 347) وذاع صيت «آمون» الليبي إلى درجة أن مستشاري الاسكندر المقدوني أشاروا عليه بأن يفتح «سيوا» كي يستتب له الأمر في مصر، فعمل بمشورتهم، وقطع بأثقاله مسافة ستمائة كيلومتر عبر الصحراء، ليعوج مدة ما بتلك الواحة النائية الصغيرة. وقد بلغت أصداء تلك الزيارة جزيرة العرب نفسها، كما يشهد بذلك قول الشاعر أمية بن أبي الصلت (لسان العرب، مادة : ثأط) :

بلغَ المشارق والمغارب يَبتغي *** أسباب أمرٍ مِن حكيمٍ مُرشدِ
فأتى مغيب الشمسِ عند مآبها *** في عين ذي خَلَبٍ وثأطٍ حَرمَدِ

ومما هو قمين بالذكر أن سكان واحة «سيوا» كانوا حتى الاربعينات أو الخمسينات من هذا القرن يتكلمون اللغة الأمازيغية.

لقد خصص «المستمزغ» الفرنسي «لاووست، Laoust» كتاباً للتعريف بلهجتهم. ولا يستبعد أن يوجد من بينهم، بكثرة أو بقلة، من لا يزال يتكلمها حتى الآن. وبعد هذا الاستطراد، الذي كان ضرورياً، نعود إلى صلب الموضوع. لقد إسترعى إنتباه المؤرخين أن «البربر» كانوا باستمرار يتحالفون مع كل مستعمر «طارىء» رغبة في التخلص من

المستعمر «المقيم» حالفوا أو حالف بعضهم روما للتخلص من قرطاجة، ثم حالفوا الوندال للتخلص من روما (Les Berbers، 77 نقلاً عن القديس أغوستينوس، وعن جيبون، Gibbon). وشاركوهم في تخريب «المدينة الخالدة» وتخريب مدن أخرى إيطالية، وقاسموهم الأسلاب (les Berbers, 85 نقلاً عن فيكتوريس فيتنسيس، Victoris Vitensis، وهو Victor de Vite المولود بقرطاجة سنة ٤٥٥م). ثم لم يلبثوا أن عادوهم وحاربوهم، إنطلاقاً من جبال «أوراس» بوجه خاص، وكبدوهم «أشنع هزيمة تكبدوها في تاريخهم» حسب ما رواه «بروكوبيوس،» .
(Procopios les Berbers, 87) ولما هاجم البيزانتيون مواقع الوندال في أفريقية الشمالية، وهي مواقع غير ذات أهمية (les Berbers) لزم الامازيغيون الحياد أول الأمر إلى أن أنهزم أعداؤهم «القدماء» فواجهوا إذّاك أعداءهم «الجدد» ونظراً لأهمية المواجهة الطويلة الشاقة بينهم وبين الرومان، ثم بينهم وبين البيزانتيين، ورثة الرومان، سنحلل المسألة بشيء من التفصيل فيما بعد، لأن ذلك يقتضي معرفة ما لأوضاع الأمازيغيين السياسية قبل أن يدهم الاستعمار الروماني بعض أراضيهم.
أما الوندال فلم تمكث جحافلهم في الشمال الافريقي مدة طويلة، ولم تتأثر البلاد بمجيئهم تأثرا حضاريا يذكر.

٢ - سلالات أمازيغية تحكم مصر القديمة قروناً:

لم يتأت للأمازيغيين، قبل إسلامهم، أن يفتحوا أراضي أجنبية ويستعمروها، كما تأتى ذلك لغيرهم من الامم، وللرومان خاصة. لكن

سلالات منهم وجدت مع ذلك سبيلاً غير مباشر للاستيلاء على الملك في أعظم مملكة عرفها التاريخ، وأطولها عمراً، ألا وهي مصر الفرعونية، فتعاقب على أراضي الكنانة فراعنة «ليبيون» لعدة قرون، إبتداء من القرن العاشر قبل الميلاد.

تم ذلك بعد تسلسل أحداث شهدتها مصر فيما بين سنة ١٢٢٧ وسنة ٩٣٥ق.م. لما أوقف الفرعون «راعامسيس» الثالث الهجمات الخارجية التي تعرضت لها مصر، في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، لم يتمكن من إيقاف الزحف الأمازيغي (الليبي) إيقافاً كاملاً. فإستوطنت قبائل «بربرية» وادي النيل، وصارت تمد الجيوش الفرعونية بالجنود. وفي أواخر الالف الثاني قبل الميلاد كان عدد من أولائك «المرتزقة» قد تبوؤوا مناصب عمال في الاقاليم، وكانت الأوضاع السياسية متردية. فلم يوشك القرن الأول من الألف الاول أن ينتهي حتى استولى الزعيم الليبي«شيشونق» Chechonq (ولعله في الواقع شيشونغ) على العرش المصري ودشن عهد الأسرة الفرعونية الثانية والعشرين، سنة ٩٣٥ق.م، وأتخذ «بوباستيس» Bubastis عاصمة له.

وعلى يده عادت الأوضاع في وادي النيل إلى نوع من الاستقرار فرد لمصر نفوذها السياسي في الشام بالاستيلاء على «أوكاريت» Ugarit وجبيل، Byblos و «أورشليم» بيت المقدس الحالي. وقد ظل الحكم متوارثاً بين الأسر الأمازيغية الليبية إلى حوالي ٧١٥ق.م، وكان آخر فرعون أمازيغي «صريح» ساد مصر هو «تافناخت» Tafnakht من الأسرة الرابعة والعشرين. فخلفه فراعنة «هجناء» (أمازيغيون إثيوبيون) عندما دُشن

عهد الأسرة الخامسة والعشرين(Histoire du développement..II, 26)

٣ ـ ممالك أمازيغية قديمة تحاول جمع الشمل:

تخبرنـــا المصادر المصرية بأنـــه كان للأمازيغيين الليبيين ملوك، في أواخر الالف الثاني قبل الميلاد. وتشـــير بعض المؤلفات اللاتينيـة إلى أن كلا من الملكين الأمازيغيـــين ياربـاس larbas ويوفاس lopas أو: (يوفـــان lopan) رغب في الزواج بالأميرة الفينيقية أليسا،

لكن لابد من التســاؤل بشـــأن ذلك: أكان ملوك المصادر المصرية ملـــوكاً حقاً، أم كانوا زعماء قبائل، يتكلمون بأسم قبائلهم؟

ثـــم، ما هـــو الجانب الاســطوري وما هـــو الجانب التاريخـــي في ما روي بخصـوص خطبـة «ياربـاس» و «يوفـان» لأليسـا؟ وإنما من المحقق أنه كان بشـــرقي ليبيا، فـــي غضون القـرن الخامس ق.م، ملك يســمى «أدريـكان Adrican» بشـهادة مـن هيرودوتوس .Herodotos ومـن المحقـق أيضا أنه كان لبعـــض أراضي نوميديا ملـــوك، ولبعض أراضـــي موريتانيا ملوك، ابتداء مـــن القرن الرابع الميـــلادي ق.م. ويعتقـــد جُل المؤرخين أن الملـــك «أيليماس، Ailimas» هو الذي أســـس دولـة «المازيليين » التي ينتمي اليها «ماسينيزا» روى عنـــــه « ديودوروس» أنه قتل فـــي معركة خاضها ضد طاغية «سيراقوسا» «أكاثوكليس» حوالي سنة ٣١٠ق.م

(l'Afrique du Nord... 68,71)

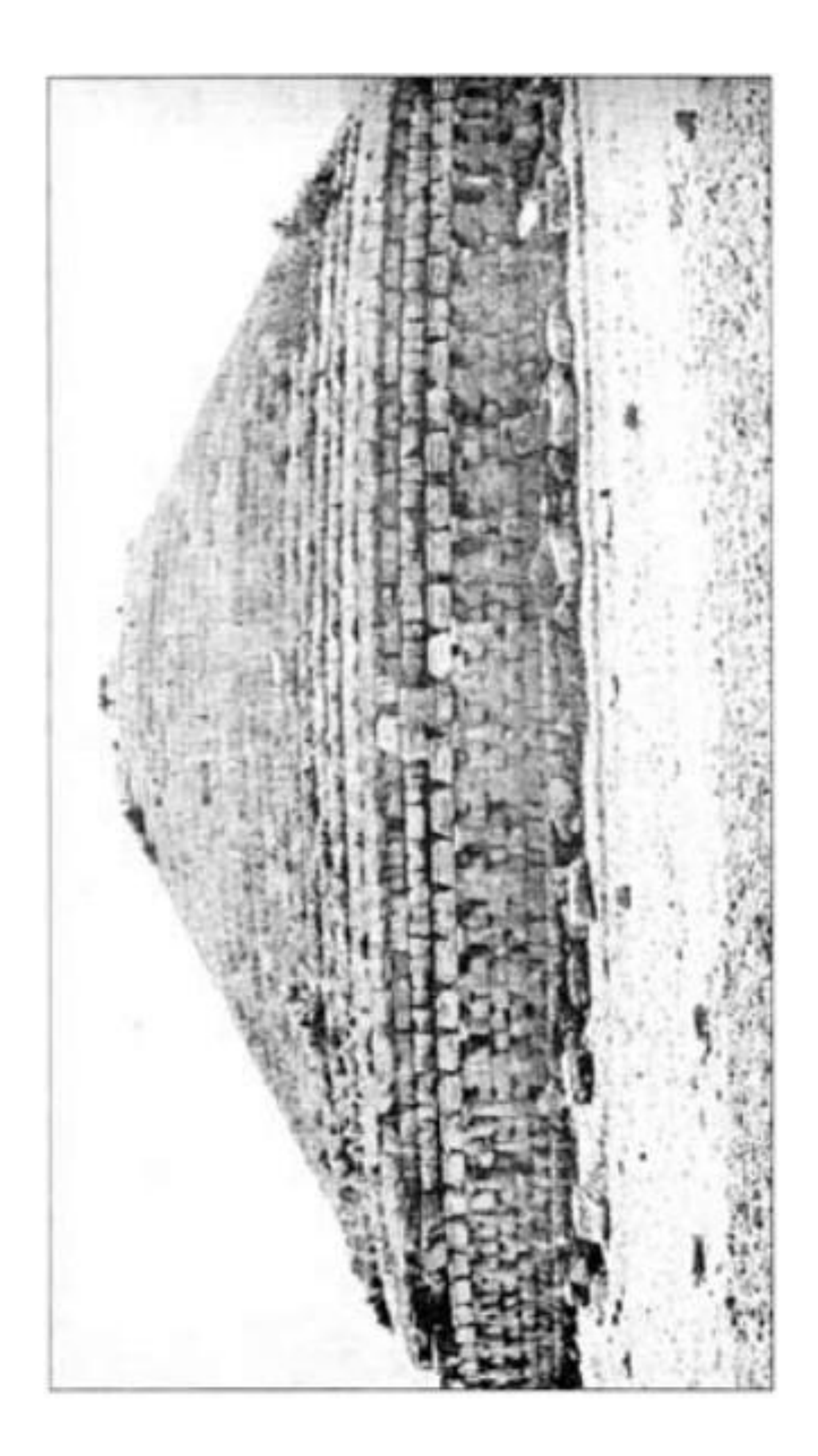
أما في القرن الثالث ق.م، فقد أخذت معالم الممالك الأمازيغية تتضح، بحيـث يمكن المؤرخين أن يدرسـوها حتى في بعض مظاهر سـيادتها. ومـن ملوكها الأول الذين حاولوا

بجد أن يجمعـــوا شـــمل الأمازيغيـــين «ســـيفاكس، أو ســـيفاقس، أو سـيفاغس» Syphax و «ماسينيزا» Masinissa و«باكا» Baga عـاش هؤلاء الملوك الثلاثة في زمن واحـــد، في أواخر القرن الثالث ق.م. حالـــف أولهـم قرطاجة وحاربها ثانيهم بسند من ثالثهم.

كان ســـــيفاكس ملكا على قبائل «ماسايسولي» التي لم يحدد التاريـــخ مواطنها بالضبط، وكان «ماسينيزا» ملكا على قبائل «مازيلا (أو «ماسيلا)» النوميدية، وكان «باكا» ملكاً على جزء مـــن أراضي موريتانيا يمتـــد من المحيط غرباً إلى نهر «مولوتشـــا» شـــرقاً، ومن البحر المتوســـط شمالاً إلى سفوح الاطلس جنوباً فيما رُجح.

لم يكن للملك «ســـيفاكس» عقب فـــي الملك، لأن«ماســـينيزا» هو الذي استولى على مناطق نفوذه بعد أن هزمه وأسـره. أما «بـاكا» الموريتاني فقد ورثت عرشـــه أســـرة «بوكوس» التي لا يدري أهي من ســـلالته أم من غير ســـلالته، لأن الحقبة التي تفصل عهد « بـــاكا» عن عهد «بوكوس» الأول تناهز القرن، ولا يعرف شيء عما حدث فيها.

فبينمـــا كانت كل مملكة من هذه الممالـــك الثلاث تحاول جمع الشـــمل في المنطقة الخاضـعة لنفوذها، كانت الحروب تتوإلى بين رومـــــا وقرطاجة. فنتج من ذلـــــك أن كلا الطرفـــــين المتناحرين صـار يغري الأمازيغيين بالتحالف معه، ويســـتغل التنافس الذي يطبع علاقـــات الملوك بعضهم ببعض. وفي أثنـاء الحرب البونية الثانية إسـتطاعت روما، بفضـل معرفتها لمعطيات المجال السياســـي «الافريقي»، أن تكســـب صداقة أشـــد الملوك حنقاً على قرطاجة، وهـو «ماسينيزا»، وأن تتحـالـف معه. فكانت تلك



نموذج أول من الأضرحة الأمازيغية التي يرجع عهدها إلى ماقبل الميلاد وهو ضريح "ميدراسن" بالجزائر.

المحالفة هي الثلمة الأولى التي تســـربت منها الهيمنة السياسية الرومانية، شـــيئاً فشـــيئاً، إلى مراكز الحكم في أقطار المغرب كلها، ذلك أن رومـــا اتخـــدت جميع أســـاليب الترغيب والترهيـــب منهجية لها لإغـــراء الملوك الأمازيغيين بعضهم ببعض، في مرحلة أولى، ثم أزالت القناع عن وجهها في مرحلة ثانية وحاربت كل من إمتنع أن يكـــون عميلا لها، واســـتمرت علـــى تلك الخطة مـا يقرب من قرنين، موسـعة نطاق سـيطرتها في اتجاه الغـرب إلى أن قضت علـى الممالك كلهـا، ولم تُبـق، بصـورة شـكلية، إلّا على عرش موريتانيـــا، فأجلســـت عليه الأمير الأمازيغي الشـــاب "يوبا بن يوبا" الذي كانت قد أســـرته، وهو صبي، بعـــد التخلص من أبيه. فظل يوبا لها عميلا إلى أن توفي. فسار ابنه "بطوليمايوس" على نهجه، إلى أن اســـتدرجه ابـــن خالتـــه، الأمبراطور الرومانـــي «كاليكولا،» Caligula إلى حضور أحتفالات رســـمية بمدينة «ليون» الغالية، حيث أمر باغتياله، سنة ٤٠م. وبموته أنقرضـت الممالك الامازيغية القديمة. جدول بتتابع الســـــلالات الملكية الأمازيغية القديمة، في الزمان، وبمطاردة الرومان لها في المكان

٤ ـ نظرة عن أعمال الملوك القدماء البارزين.

أـ الملك سيفاكس المسايسولي، المتوفى سنة ٢٠٣ ق.م.

لم يســـــــتطع المؤرخون ضبط حدود مملكته، فرجحوا أنها كانت لملكه عاصمة شـرقية، هي « قيرطا، أو شـيرتا Cirta» وعاصمة غربية، حيث كان يقيم، هي «سيكا Siga» لعل «سيفاكس» لم يكن في أول أمره ســـوى زعيم قبيلة تغلبت على قبائل أخرى،

ثم حمل التاج وضرب العملة باســــــمه ونظم الجيش، واستعان بابنه «أورمينا Vermina» في تسـيير الشـؤون الحربية. ومع أنه تأثر إلى حد بتقاليد اليونان السياسـية، كان يعتمد في ممارسة سلطته على مسـاعدة زعماء القبائل. كانت له علاقات ديبلوماسية مع كل مـن قرطاجـة وروما. كانت لغـة الحياة اليوميـة والتخاطب فـي مملكته هي الأمازيغية، وكانت لغة المكتوبات الرسمية هي الفينيقية، وكانت لغة الثقافة هي اليونانية.

ولعل أسمه هو المقصود فيما كتبه ابن خلدون عن أصل «البربر» إذ قال إن جدهم «سفك» يعزز هذا الفرض أن «بلوتارخوس Plutarkhos» زعم شيئاً من هذا القبيل (l'Afrique du Nord..., 85).

فـي خضم الحرب البونية الثانية كانت كل من روما وقرطاجة تترضـى «سيفاكس» وتحاول أن تجره إلى جانبها. فسعى للاصلاح بين الطرفين ولم يفلح، بسبب تعنت روما. فاختار جانب قرطاجة، بعد زواجه بإحدى بنات أعيانها، «صوفونيسبا»، علماً منه أن انتصار روما لن يكون له على «أفريقيـة» إلّا عواقـب وخيمة. لكـن الرومان اتجهـوا إلى خصمه ومنافسه «المازيلي» الملك الشاب الطموح «ماسينيزا» وحالفوه، فحارب «سيفاكس» وهزمه وأسره وسلمه لحلفائه، وورث مملكته.

ولعل الأمير «أورمينا Vermina» عاش بعد أبيه بضع سنوات، كما يدل على ذلك العثور على عملة فضية تحمل Hسمه.

ب - الملك «ماسينزا» المازيلي (١٤٨ - ٢٤٠ ق.م.)

برزت شخصية هذا الملك أول ما برزت في كفاءته الحربية.

لقد اســتطاع أن يهــزم «ســيفاكس» الماسايســولي، ثم مكن الرومــان من الانتصـــار على أمهر جنرال عرفــه التاريخ القديم، ألا وهـــو «حنعبل» القرطاجي، وذلك في معركة «زاما» الشهيرة، سنة ٢٠٢ ق.م.

(la Carthage punique, 284,85, Gsell, III,)

(٢٦٨,٢٨٠) لقد كان ســبب بغضه لقرطاجة هو تمسكه بمبدأ «أفريقيــة للأفارقــة» وممــا أثــار حفيظته ضدها بشــكل خاص، حســب ما روي، هو تزويج القرطاجيين «ســيفاكس» مخطوبته «صوفونيســبا». والواقع أن جيرانه القرطاجيين كانوا متواطئين مع خصمه المساســولي قصد القضاء على ملكه. فلم يجد بُدا من محالفة الرومان، مع إضـمار غايته القصــوى في نفســه، وهي إنشــاء مملكة أمازيغية موحدة مســتقلة عن كل نفــوذ أجنبي، لا سيما أن اتفاقية الصلح بين روما وقرطاجة (٢٠١ق.م.) كانت تنص على أن من حقه أن يعمل من أجل اســـترجاع جميع الأراضي التي كانت بقبضة أجداده، في غير تحديد لتلك الأراضي. وإن لـــم يوفق فيما بعد، فلســببين اثنين: أولهما أنه شــاخ وهرم ومات قبـل أن تنهزم قرطاجة انهزامها النهائي. وثانيهما أنه لم يهــيء أبناءه لمواصلة عمله بعد وفاته، بل ارتكب خطأ سياســياً باعتماده على الرومان وتنصيبهم أوصياء على عرشه بعد وفاته.

لا شك أن حقده «القديم» على قرطاجة هو الذي دفعه إلى ذلك، وأنـــه حينما أقدم على فعله ذلك كان خائـــر القوى، عقلياً وبدنياً، يعيش مع ذكرياته أكثر مما يعيش مع الواقع، بما أنه توفي عن سن جاوزت التسعين. ولاشـــك أن الرومان كانوا على علم من نواياه، وأنهم راوغوه طيلة حياته حتى يظل وفيا لهم. وقد قدر المؤرخون

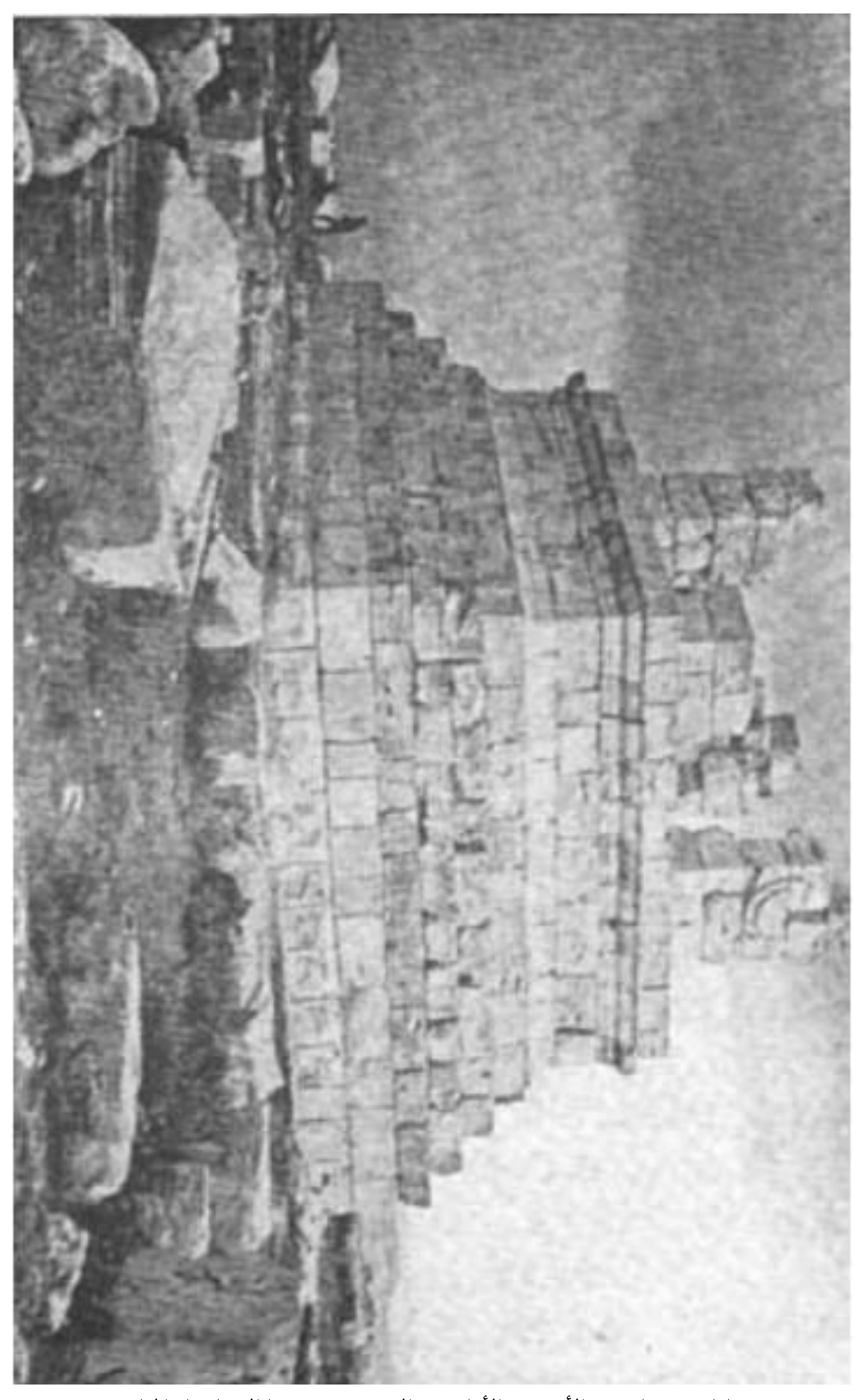
أنه لــو لم يدركه الأجل قبل عزم روما علــى هدم قرطاجة، لبذل قصارى جهــده لانقاذها من الخراب، كي تكون قاعدة لملكه. وذلك مـا كان الرومان يخشــونه ، (Gsell, III, 354)فقوضوا العاصمة البونيــة عن آخــر مبانيها، وقسـموا الملك بين أبناء «ماسينيزا» الثلاثة حتى يضعف شـأنهم، وشـرعوا فـــي تطبيق خطتهم الراميــــة إلى الاحتلال المباشـــر وإلى الاســـتعمار الاستيطاني للمناطق «النافعة» في افريقية الشمالية.

أما فيما يرجع لتنظيم المملكة المازيلية، فقد كان «ماسـينيزا» نموذجـا من النمـــــاذج الأمازيغية القديمة كمــــا وصـفناها بصـدد الحديث عن «ســيفاكس»، إلّا أن بقاءه علــى العرش مدة طويلة ما يقرب من ســتين ســنة : من حوالي ٢٠٥ إلى ١٤٨ق.م مكنه من إنجاز أعمال لم يسـبقه إليها أحد.

وسع «ماسـينيزا» حـدود مملكتـه، وجعلها تمتد من وادي «مولوتشـا» غربـا إلى أراضـــي طرابلس الحالية شـــرقا، ولم يفلت من قبضته إلّا مملكة موريتانيـا وما تبقى لقرطاجة من ممتلكات حـول المدينـة، بعـد انهزامها ســنة ٢٠٢ق.م. وقـد اضطره هذا الاتسـاع فـي رقعة الملـك إلى التجوال المســـتمر عبـــر الاقاليم، على رأس جيوشـــه، وإلى مواصلة مســاعيه الديبلوماسية من اجل إغراء روما بقرطاجة. كان يحمل لقب«أكليـد» (أي الملك باللغة الأمازيغية).

وقد حـــاول هو أيضا أن ينظـــم مملكته على النمط الاغريقي المقدوني، فلبس التاج وحمل الصولجان، حسب مـا يظهر في النقـود التي ضربت لـه في عاصمتـه « قيرطا، أو شيرتا» (قسـنطينة الحالية فيما رجحه المؤرخـون حتى الآن).

بقايا نوذج ثانٍ من الأضرحة الأمازيغية التي يرجع عهدها إلى ما قبل الميلاد.



بقايا نوذج ثانٍ من الأضرحة الأمازيغية التي يرجع عهدها إلى ما قبل الميلاد.
توجد بالجزائر في المكان المسمى بالخروب.

كان يحافظ على تماسك أطراف مملكته بالوسائل السياسية التقليدية، اي المصاهـرات والتعاهد مع زعمـاء القبائل، وإيقاظ المشـاعر الدينية، وبالحرب عند الضرورة (l'Afrique du Nord،109,110) فاستطاع بذلك أن يجبي الجبايات وأن يفرض على رعاياه نوعا من الخدمة العسـكرية، علـى غرار ما هو مألوف عند جميع الأمم ذات البنى الاجتماعية القبلية. وشـجع السكان على تعاطي الزراعة وعلى الاسـتقرار في السـكن. وأنشـأ اسـطولا حربيا واسـطولا تجاريا، وفتح أبواب مملكته للتجار اليونانيين. وفي عهده انتشرت الثقافة البونية بين الأمازيغيين أكثر من ذي قبل، مع معاداته لقرطاجة. وقدم العاصمـة «قيرطا» عدد من الأدباء والفنانـين اليونان، وجعلوا منها مدينـة راقية في حياتها الماديـة والفكرية. كان الملك نفسه معجبا بالحضارة اليونانية، وكان يعمل بتقاليد الملوك اليونانيين، فأكل في الآنية الفضـية والذهبية، واتخذ جوقة من الموسـيقيين الاغريق. ولاشك أن التجار اليونانيـين كانوا يروجـون بضاعتهم بفضل ولوعـه بكل ما هو يوناني. وقد نسـب اليه بعض المؤرخين إحداث الأبجدية الأمازيغية القديمة (تيفيناغ)، مع انها أقدم بكثير مما توهموه.

ج - الملك "بوكس الأول" Bocchus I الموريتاني.

كانت مملكته أول الامر هي التي ورثها عن عهد « باكا» السالف الذكر. لكنـه اغتنم فرصـة انهزام « يوكرتـن» أمام الجيوش الرومانية واستولى على الجزء الغربي من مملكة المازيليين. وقد ألصـق به التاريخ، كما كتبه المؤلفون اللاتينيون، تهمة الغدر بصهـره وحليفه يوكرتن المازيلي، ولا سبيل إلى التعقيب على حكمهم، نظرا لقلة المصادر.

ولا يُدرى أين كانت عاصمة المملكة الموريتانية في عهد بوكوس الاول، إلّا أن بعض المؤرخين من المعاصرين يعتقدون أن ذلك الملك كان ينتقل بين عواصم متعددة، وأنه بدون شـــــك استولى على مدينة«سيكا SIGA» المازيلية بعد انهزام «يوكرتن» سنة ١٠٥ ق.م. وعلى كل حال، كانت مملكته تحتضن مجموعة من المراكز الحضرية، نخص منها بالذكر تينجي (طنجة)، وتامودا ووليلي (وليلي ما قبل العهد الروماني).

مارس الملك بوكوس الأول «سلطته المطلقة» في حدود قدراته العسكرية، وفي حدود التعامل مع العصبيات القبلية.

كان له مجلس شورى من الأقارب والأصدقاء وبعض زعماء القبائل. وكان له ديوان للكتابة ولتدبير شؤون الجيش وكان عضده الأيمن في العمليات الحربية هو ابنه «أولوكس Volu» كانت تساعده في الاتصالات مع الخارج، ومع روما خاصة، هيئة سفراء من خمسة أعضاء.

وكانت له دار للسكة. ومن أجل هذا كله كان بوكوس الأول يعتبر نفسه أعظم ملك يوجد على وجه البسيطة، حسب ما رواه «سالوستيوس Sallustius» الروماني.

توفي فيما بين ٨٠ و ٧٠ ق.م.، فخلفه ابنه بوكود الأول، ثم انقسمت المملكة إلى شطرين، حكم أحدهما بوك ـوس الثاني، وحكم الآخر بوكود الثاني. وفي سنة ٣٨ ق.م. تخلص بوكوس من شريكه واستأثر بالملك. ولما توفي سنة ٣٣ ق.م. لم يترك عقبا يخلفه، فبسطت روما نفوذها السياسي على موريتانيا، وولت عليها الأمير الأسير يوبا الثاني (٢٥ ق. م.).

د ـ الملك "يوكرتن" Yugurthin المازيلي:

يوكرتن ابن غير شرعي لماستانابعل بن ماسينيزا، ألحقه عمه الملك «ميكيوسا» بابنيه «أمفسال» و «أدربعل»، وجعله شريكا لهما في إرثه. وبعد وفاة «ميكيوسا» حارب «يوكرتن» ابني عمه وتخلص منهما بالقتل على التوالي، وانفرد بالملك. ثم تصدى للرومان (١١٢ق.م)، فظلت الحرب سجالا بينه وبينهم إلى أن تخلى عنه حموَّهُ وحليفه الملك « بوكوس» الاول الموريتاني، فأسره الرومان سنة ١٠٥ ق.م، وحملوه إلى روما حيث سجنوه، ثم بطشوا به في سجنه. وقد سجل التاريخ عن هذا الملك انه كان ذا حنكة حربية نادرة، وانه كان من اشد المقاومين الذين عارضوا روما في سياستها العدوانية التوسعية، زمان صولتها على ضفتي البحر المتوسط، ولذا تسبب صموده في هزات اجتماعية عنيفة اجتاحت القواعد الايطالية كلها.

وللملك «يوكرتن» قولة مشهورة ندد فيها بجشع الرومان عامة ونبلائهم خاصة. قال: «روما، ايتها المدينة المعروضة للبيع! أنت هالكة لو تجدين مشتريا!» وقد أرّخ لحربه مع الرومان الكاتب اللاتيني «سالوستيوس»

هـ ـ الملك "يوبا الاول" Yuba I

في خضم الحرب الاهلية التي نشبت بين انصار القائدين الرومانيين «يوليوس قيصر» و «بومبيوس Pompeius». شعر الملك المازيلي يوبا الاول بان تمثال رأسي برونزي للملك يوبا الثاني عثر عليه في أنقاض وليلي. قيصر، في حالة انتصاره، سيتشدد في سياسته الافريقية، وذلك لانه

كان له به سابق معرفة. فحالف من اجل ذلك خصمه «بومبيوس»، بينما حالف الملكان المورتانيان بوك ود الثاني وبوكوس الثاني يوليوس قيصر. فلما كان النصر من حظ القيصريين، وجد يوبا نفسه معزولا عن جيشه وعن أسرته، فعزم على الانتحار بطريقة فريدة من نوعها، ذلك أنه دعا للمبارزة آخر رفيق وجده بجنبه، وهو قائد روماني، فتضاربا
إلى أن أردى كل منهما الآخر قتيلا (٤٦ق.م.).

ومما روي عن هذا الملك انه كان يراود فكرة توحيد الأراضي الامازيغية كلها تحت رايته، وانه كان شديد الغيرة على سيادة مملكته، بحيث انه كان، مثلا، يمنع على الضباط الرومانيين لبس البرنس الاحمر، لأن البرنس الاحمر كان هو شعار ملكه، لا يلبسه إلّا هو. كان ابنه وسَميّه «يوبا» حين وفاته، طفلا صغيرا عمره بين خمس وسبع سنوات، أسره «يوليوس قيصر» وحمله إلى روما، حيث نشأ في كنف بلاط الامبراطور «أوغوستوس» خلف قيصر، وهو الذي نصبه ملكا على موريتانيا.

٥ ـ المقاومة الشعبية تنغص على الرومان والبيزنطيين مقامهم في الربوع الامازيغية.

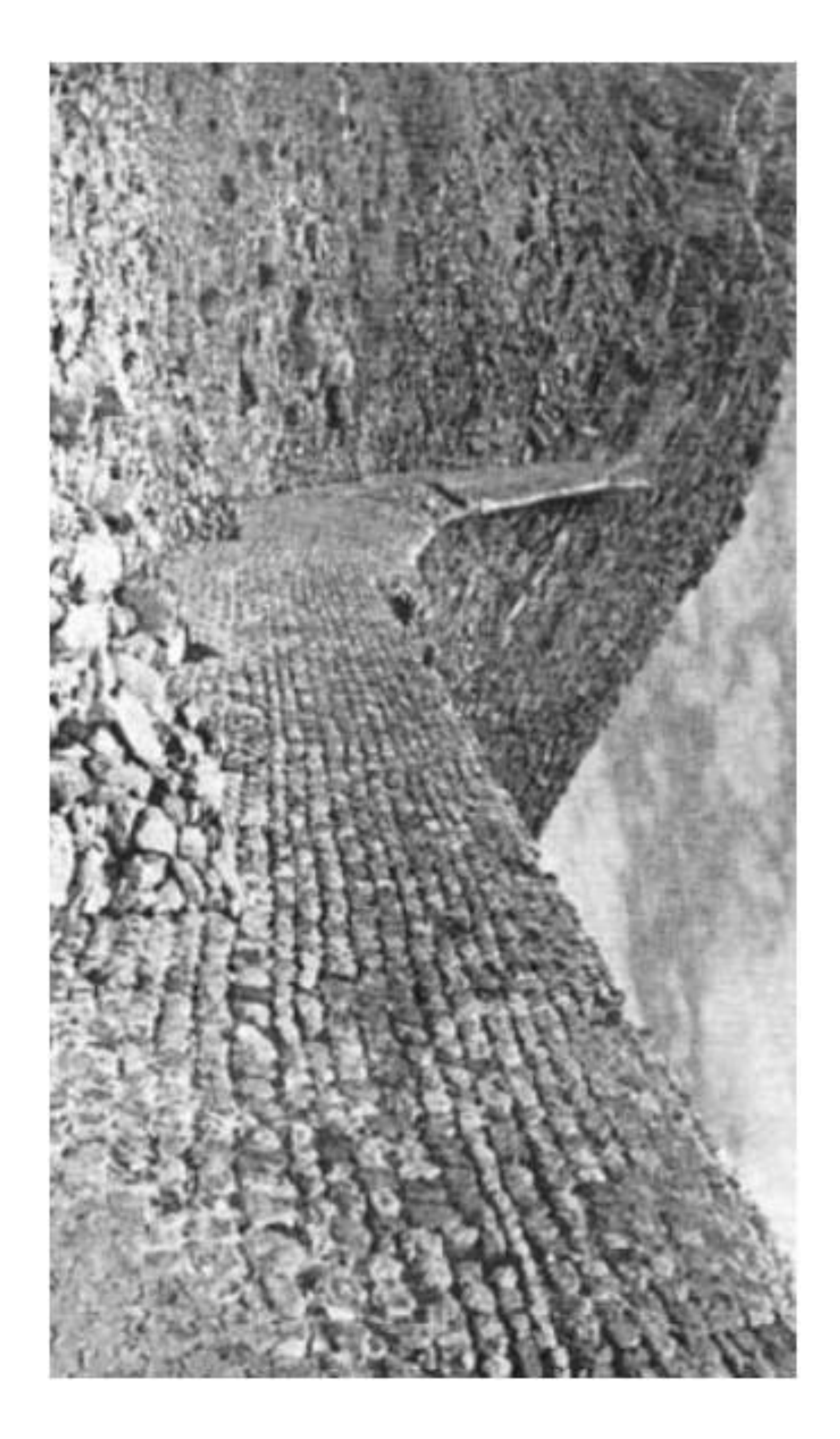
لما لم يوفق الملوك في ايقاف الزحف الاستعماري الروماني، لا من جراء ضعف حربي، ولكن من جراء ضعف في التعامل السياسي مع الاحداث راجع بدون شك إلى المنافسات الداخلية، أخذت ظاهرة المقاومة الشعبية تبرز للوجود. وليس من المصادفة أن يحدث ذلك في العقد الرابع من القرن الاول قبل الميلاد، بل حدث في الوقت المناسب، اي بعدما اختفى

عن الســـــاحة «الافريقية» كل ملك مستقل برأيه قليلا او كثيرا. أخذت إذّاك القبائل تحارب الرومان بصـــورة تلقائية.ففي الحقبة الممتدة من سنة ٣٤ إلى سنة١٩ ق.م. دارت رحى الحرب بين الطرفين خمس مرات (les Africains VII, 299). ثم توالت المعارك طوال النصف الاول من القرن الأول الميلادي. فخرج من صــفوف المقاومين زعماء وقواد حرب خلد التاريخ أســماءهم، أمثـــال «تاكفارينـــاس Tacfarinas» المنتمي لقبيلة «موســالاميس Mulalames» النوميدية، «أيديمون Aedemon» احد عتقاء الملك «بطولاميوس» . ولم يكف روما مؤونة الحرب في المواطَن الامازيغية كونها تولّي على عرش موريتانيا ملكا ربته في أحضـانهـــــا. فمن المفارقات أن رعايا «يوبا» الثاني كانوا يقدســــــونه ويمقتونه في آن واحد .(les Berbers, I, 49, 50). استمرت المقاومة طوال عهد الاحتلال، فشـــن الامازيغيون الغارات على المستعمر حيثما وُجِد، حتى في الأندلس.

(les Berbers, I, 56) واضــطر الامبراطور «أدريانوس Adrianus» في أوائل القرن الثاني الميلادي (١٢٢م.) إلى زيارة مواقع المواجهــــــــة «ليحارب الموريتانيين (combattre les Maures) «pour les berbers, I, 55, 56

لكـن روما لم تجد حلا لقضيـة المقاومة الامازيغيـة (Rome et les ،176) Berbères فاستمرت الاوضاع على ما كانت عليه (lesBerbers ،I, 55,77) إلى أن تعـــاون «البربر» مع الونـــدال وقوضوا أركان الوجود الروماني في «افريقية الشمالية»، ثم خربوا روما نفسها.

ومما يجدر التنبيه له هو أن الامبراطور الروماني «الافريقي» الاصل «كاراكالا Caracalla» منح شعوب المستعمرات حق المواطنة الرومانية (٢١٢م.)، فلم يفد ذلك روما شيئاً في تعرضها للهجمات الامازيغية،



بقايا، في تونس، من الجدار الأمني "الليمس" الذي كان الرومان يحتمون به من هجمات القبائل الأمازيغية.

والسبب هو أن القبائل الاشد بأسا لم تنضو تحت لواء الامبراطورية، بل لاذت بالجبال والصحاري خارج المنطقة المحصنة بقلاع «الليمس limes» وجدرانه وخنادقه التـي لا نزال تشـهد بقايـا بعضها على طوال الخـط الممتد بين الرباط وتازة.

وبالتحصين أيضا ضمن البيزنتيون بقاء مهمشـا لمواقعهم على الساحل المتوسـطي الافريقي، لمدة قرن، دون أن يتمكنوا من التوغل في الاراضـي الداخلية كما فعلوا في مصر والشام وآسيا الصغرى وإيطاليا. ضمنـوا لها البقاء، دون ضمـان الأمن. كانوا عـادة لا ينتقلون من موقع إلى موقع إلّا على طريق البحر.

ولما امتدت أنظار الروم إلى بعض اراضي أفريقيا ونوميديا الشـرقية، نشـطت المقاومـة الامازيغية نشـاطا كبيرا بقيـادة زعماء من قبائل «أوراس»، وقبائل «اللواتـة» الليبية امثال «يابداس labdas» و «أنتـالاس Antalas» و «كاركاسـان Carcasan» فانهـزم البيزانتيـون عـدة مرات، مع لجوئهم إلى الغدر في غير مناسبة، وقُتل منهم عدد من القواد العسكريين الكبـار، فاضطروا مـرارا إلى أداء الفدى وتقـديم الهدايا النفيسـة. فبالاضافة إلى المناوشـات التي تحدث بين الطرفين باسـتمرار، قـد دارت بينهما معارك طاحنة سـنة ٥٣٧م، وسـنة ٥٤٣م، وسنة ٥٥٠م، وسنة ٥٦٣م. فبـرز فـي تلك المعـارك قواد عسـكريون أمازيغيون مهرة امثـال «كزمـول Gazmul» الذي هَـزم بالتوالي ثلاثـة جنرالات وقتلهم. وكان المقاومون كلما انهزموا لاذوا بالجبال أو الصحراء.

وكان الأسرى منهم يتحدون الجنود الروم ويسبون الامبراطور وهم

مصفدون. فأدرك القــواد البيزانتيــون أن «البربر لا يمكن أن يهزمهــم إلّا البربـر!» فاسـتدرجوا قبائـل أوراس إلى التحالـف معهـم بقيـادة «يابـداس» و «إفيســداياس Ifsdaias» فقتل «أنتالاس» وفي ســنة ٥٩٧م خادع الروم «البربر» وغدروا بهم غدرا شــنيعا، وهزموهم. ثم تواصلت المناوشـــات إلى أن جاء الاسلام (les Berbers, 92...108)

الأمازيغيون عند الفتح الإسلامي وبعد إسلامهم

١ - الأمازيغيون والفتح الاسلامي:

بعدما يكون المرء قد اطلع على ردود الفعل التي كانت تصدر، قبل الاسلام، عن «البربر» كلما هوجموا في عقر دارهم، يكون قد أدرك الاسباب التي من أجلها لم تفتح «أفريقية الشمالية» كاملة للدين المحمدي إلّا بعد لأيٍ وعَناء. كان من الطبيعي أن ينظر الأمازيغيون إلى الفاتحين الاول نظرة المغزو للغازي، لا سيما أن العرب كانوا يطرقون الأبواب مصحوبين بقضهم وقضيضهم (فتوح أفريقية والاندلس ٢٠) مسلحين مستعدين للقتال ظاهريْ الرغبة في السبي والغنم.

فلا غرابة والحالة تلك، أن ينهض الأهالي لرد مايرونه هجوما استعماريا من النوع الذي كان لهم به سابق عهد. وبعد الاصطدامات الاولى تحركت ديناميكية الحرب، وقويت عند الجانبين كليهما إرادة الانتقام والاخذ بالثأر؛ واستمر الوضع على هذه الحال قرناً كاملاً، أي من عهد الغزوات الأولى التي كانت تنطلق من مصر (ابن الحكم) إلى« معركة الأشراف» فمعركة «بكدورة» (من حوالي ٢٠/٦٤٠ إلى ١٢٣/٧٤١)

اللتين حسمتا النزاع، وخلصتا المغرب نهائيا من النفوذ السياسي المشرقي.

ومن هذا المنظور ينبغي أن يفهم دور كل من كسيلة في مقاومته عقبة بن نافع، ودهيا (التي لقّبها العرب بالكاهنة) في تصديها لجيوش حسان بن النعمان، وميسرة، ثم عبد الحميد الزناتي في مواجهتهما للجيش الأموي العرمرم.

إن من يتتبع مراحل معركة بكدورة مثلا، ويحلل أساليب الحرب فيها من جهة «البربر» يدرك أن هناك تجارب سابقة في ملاقاة كل وافد غير مسالم. كل من له علم بتاريخ قدماء الأمازيغيين يسلم بأن كسيلة ودهيا وميسرة وغيرهم من «الثوار» إنما واصلوا سلسلة من الانتفاضات الشعبية الدفاعية في نطاق الخطة التي دشنها «تاكفاريناس» و «أيديمون» و «كاركاسان» في غابر الازمان، وعمل بها، في تلقائية، كل من محمد بن عبد الكريم الخطابي وموحا وحمو الزياني (بتفخيم الزاي) وعسو وباسلام وغيرهم، في الثلث الأول من هذا القرن الميلادي العشرين الذي نحن فيه. ثم إن لعزم ملوك المغرب، أمثال المولى إسماعيل والحسن الأول ومحمد الخامس، على مناهضة الاستعمار بالحكمة والقوة معا، جذورا في التاريخ زُرعت بذورها الأولى في عهد «ماسينيزا» و «يوكرتن» و «يوبا» الأول، منذ ألفي سنة ونيّف.

ومما هو مثبت أيضا أن الأمازيغيين واجهوا الأطماع الخارجية بالصمود الثقافي كما واجهوها بالسلاح الحربي (la Résistance africaine) فرفعوا غير ما مرة راية العقيدة للتخلص من الاستبداد الأجنبي؛

وخير شاهد على ذلك مواقفهم الدينية في ثلاث حقب من تاريخهم الطويل.
لما أخذت المسيحية تنتشر في الجزء الغربي من حوض البحر المتوسط، خلال القرون الثلاثة الاولى بعد الميلاد، بقي القياصرة الرومانيون على وثنيتهم.
كانوا ينصبون أنفسهم آلهة ويحرصون على أن يُحتَفَل بهم، بصفتهم آلهة في جميع أنحاء الأمبراطورية. لكن «دينهم» ذاك لم يجد طريقا إلى قلوب الأمازيغيين؛ بل نشطت ضده المعتقدات المحلية في «أفريقية الشمالية»، لاسيما في الأوساط المستضعفة. وعند ظهور المسيحية، أمر القياصرة باضطهاد كل متنصّر؛ فصار الأمازيغيون يدخلون أفواجاً في الدين الجديد. فلم ينصرم القرن الميلادي الثاني إلى أن كان المتنصّرون يعتدون بعددهم ويزعمون أنهم يشكلون أغلبية السكان. فصار الحكام الرومانيون، ابتداء من سنة ١٨٠م، يُنزلون بهم من أصناف التعذيب والقتل ما لم ينزلوه بأي شعب آخر تنصَّرَ.(C.A. Julien, I, 184...) ولما انقلب الوضع الديني في روما نفسها، اذ تخلى الامبراطور «قونسطانتينوس الاول Constantinus I» عن الوثنية، سنة ٣١٣م، واتخذ المسيحية دينا للدولة، لم يلبث أن ظهر من بين النصارى الامازيغيين ثُلّة من الزعماء الروحيين أعلنوا انشقاقهم عن الكنيسة الرسمية؛ فسموا بـ «الدوناتيين،Donatistes» نسبة إلى «دوناتوس Donatus» أحد منشطي حركتهم (Prosopographie, 292...303) وانتشرت دعوتهم في البوادي خاصة، واستمرت تنفخ في النفوس روح المقاومة المعنوية

للرومان ثم للبيزانتيين بعدهم، إلى أن جاء الاسلام، وذلك رغم ما لقيه

«المنشـقون» من أنواع التنكيل والتشـريد، ورغم مسـاندة القديـــــــس «أوغوسـتينوس» Saint Augustin الأمازيغـي الأصل للكنيسـة الرومانيـة الرسمية. (Les Berbers, I, 63, 64)

فهل مـن المجازفة أن يرى المؤرخ، ذو النظرة الشـمولية، فـي «الدوناتية» سـابقة تفسـر بوضوح ما حدث في «أفريقية الشمالية» بين الإسلام «الرسمي » الأموي وبين الخوارج المغاربة؟

ألم يكن سـبب «الانشـقاق» سياسـيا قبل أن يكـون دينيا في الحالات الثـلاث: تنصّـر الأمازيغيـين إذ كان القياصرة وثنيين، وانشـقاقهم عـن الكنيسـة الرسـمية اذ تنصّـر القياصـرة، واتباعهم مذهب الخوارج ثورة منهم على «سُنية»الامويين؟ ثم إن من حقنا أن نتسـاءل: هل اتخذ المغاربة المالكية مذهباً لهم على سبيل المصادفة فقط؟ ولمَ انفردوا بها أو كادوا؟

٢ - الدول الأمازيغية في العهد الاسلامي.

نـــــرى من الضـروري، بادىء بدء، أن نناقش المقاييس التي صـنفت بمقتضاها الدول التي تعاقبت على الحكم في أقطار المغرب الكبيـر، منذ أواخر القـرن الثانـي الهجري، إلى«عربيـة» وإلى «بربريـة» نظريا كان ينبغي لتلك المقاييس أن تنبني على مبدءين اثنين لا ثالث لهما:

المبدأ الاول: هـو أن كل من صادر الحكم في «أفريقية الشمالية»، كليا أو جزئيا، لمـدة ما، في العهد الاسـلامي، ولم يكن مسلما، لا يمكن أن يعتبر إلّا مستعمراً دخيلاً.

وبهذه الصفة عومل الفرنسيون والاسبان والايطاليون من قبل الأهالي.

المبــــدأ الثاني: هو أن كل دولة إســــلامية؛ لا يمكـــــن أن تكون إلّا دولة إسـلامية؛ لا ينبغي لها أن تلتمس مشـروعيتها في انتماء سـلالي أو عرقي، بل يجب عليها أن تلتمسـها فى التقوى وصدق العقيدة، رغـــــم ما يترتب على ذلك عادة مـــن المزايدات ومن تبادل القذف بالزندقة أو التجسيم وما إلى ذلك من أنواع الكفر.

هذا المبدأ الثاني لم يعمل به المؤرخون. عربا كانوا أو أمازيغيين مستعربين ـ لمـا صنفوا الـــدول التي تعاقبت علـى الحكم إلى«بربرية» وإلى «عربية»، وذلك لأسـباب، أهمهـا أن العرب و«البربر» على السـواء لـم يتخلصوا من الأنماط الفكريـــــــة القبلية التي تسـتوجب أن يؤرخ للنسـب والسـلالة والعرق، لا للأرض والوطن. هـــذا، بينما تقتضي الموضوعيــــة العلمية أن ينظر إلى جميع الـــدول الاســـلامية التي تتابعـــت أو تزامنت علـى أراضي المغرب والجزائر وتونس وليبيا بصفتها «عربية» و «أمازيغية» في آن واحد (وفي بعض الحالات: عربية أمازيغية تركية):

هـي عربيـة بمنزعهـا الأيديولوجي الاسـلامي الـذي بموجبه تقدس اللغة العربية وتسـتلهم الروح المشـرقية باسـتمرار، والذي لا يمكن التخلي عنه علنا في ممارســــــــــة الحكم. وما ادعاء بعض الدول الانتماء إلى الدوحة النبويـــــة، وما تأكيد بعضهــــــا الآخر، بإلحاح، لصحة انتمائها إلى بيت الشرف، إلّا تعزيز وتزكية لذلك المنزع.

وهي أمازيغية بالبيئة الجغرافية وما توفره من سند ديموغرافي بشـري لكل مرشح للحكم، وبالتربة السـوسيولوجية وما أرسبَ فيها التاريخ طوال آلاف السـنين من عادات

وعقليات، واستعداد لـرد الفعل المناسـب في كل حالة سـبق أن تكررت عبر الزمان.

أمـا اللغة فلا يمكن أن تكون وحدها هـي المقياس، لأن الأمازيغي المسـتعرب، ما لم يُنقل عن «تربته» الاجتماعية الأولى، يحتفظ، من حيث لا يشعر، بما كان متأصلا في شخصيته من مميزات؛ ولأن العربي الأصـل المنغمس منذ أجيال في لجـة المجتمع الأمازيغي «يتمزغ» من حيث لا يشـعر، لا محالة، في مقومات كيانه المادية والمعنويـة. أضـف إلى هـذا كله أن البـون بين الطبائع العربية والطبائع الأمازيغية ليس شاسعا.

ومهما يكن في هذه الاعتبارات من المطابقة أو عدم المطابقة للواقـع، فـإن المتأمـل لتاريخ «أفريقيـة الشـمالية» - أي لتاريخ إمازيغن - لا يمكنه إلّا أن يسـلّم بـأن في مـاجريـاتـه، ودوراتـه الكبرى المتكررة، وعـواملـه السوسـيولوجية، ما يلفت النظر إلى نوع من التواصل بين ماض سـحيق في القدم وماض جد قريب وكأنه حاضر.

تتجلى اسـتمرارية التاريخ «المغاربـي» في علاقات الحكام بالمحكومـين، مـن حيث إن الرعيـة تنزع دائما إلى التحرر المطلق، بينما ينزع الحكم المركزي إلى الاسـتبداد، فتنتج من ذلك أوضاع سياسية دائمة التوتر يتولد فيها العنف من العنف داخل حلقة مفرغة. وتتجلـى اسـتمرارية التاريـخ «المغاربـي» فـي الطرائق التي يواجه بها الأهالي التدخلات الأجنبية، على المسـتويين الرسمي والشـعبي. وتتجلى تلك الاستمرارية في توظيف القيم الروحية من أجل التحرر، كلما باءت المحاولات الأخرى بالفشل؛

كما تتجلى في الاقبال الاضطراري على «المثاقفةl'acculturation»

خاصة اللغويــة، لما فيهــا من مزايــا حضارية، ورغم ما فيهــا من عوائق ومثبطات لنمو الثقافة الذاتية. وســـنُبيّن في الأخير أسباب ركود الثقافة الذاتية بما هو داخلي من تلك الأسباب وما هو خارجي.

ولنا بعد هذا التحفظ المبدئي في تقبل التصــانيف الجاري بها العمل أن نسـتعرض أسـماء الدول الأمازيغية التي حكمت لمدة مـا إقليما أو قطرا أو مجموعة أقطار أو أقاليم، إما في «أفريقية الشـــمالية» وإما في الأندلس؛ نوردها في جدول بياني، كما عرف بهــا المؤرخون التقليديون، مع الاشــارة إلى أســم كل دولة منها، وإلى مجال نفوذها السياســي. وقد كتبت في هذا البيان أسماء الدول الكبرى والمتوســطة بحروف بارزة، وأســماء الدول الصـغرى والأقل أهمية بحروف عادية. أمـــا تداخل العهود بين بعض الدول المتزامنة أو المتعاقبة، أو اشــتراك أجزاء من مجالات نفوذها فراجع إلى تنازعها الحكم بينها أو تداولها إياه.

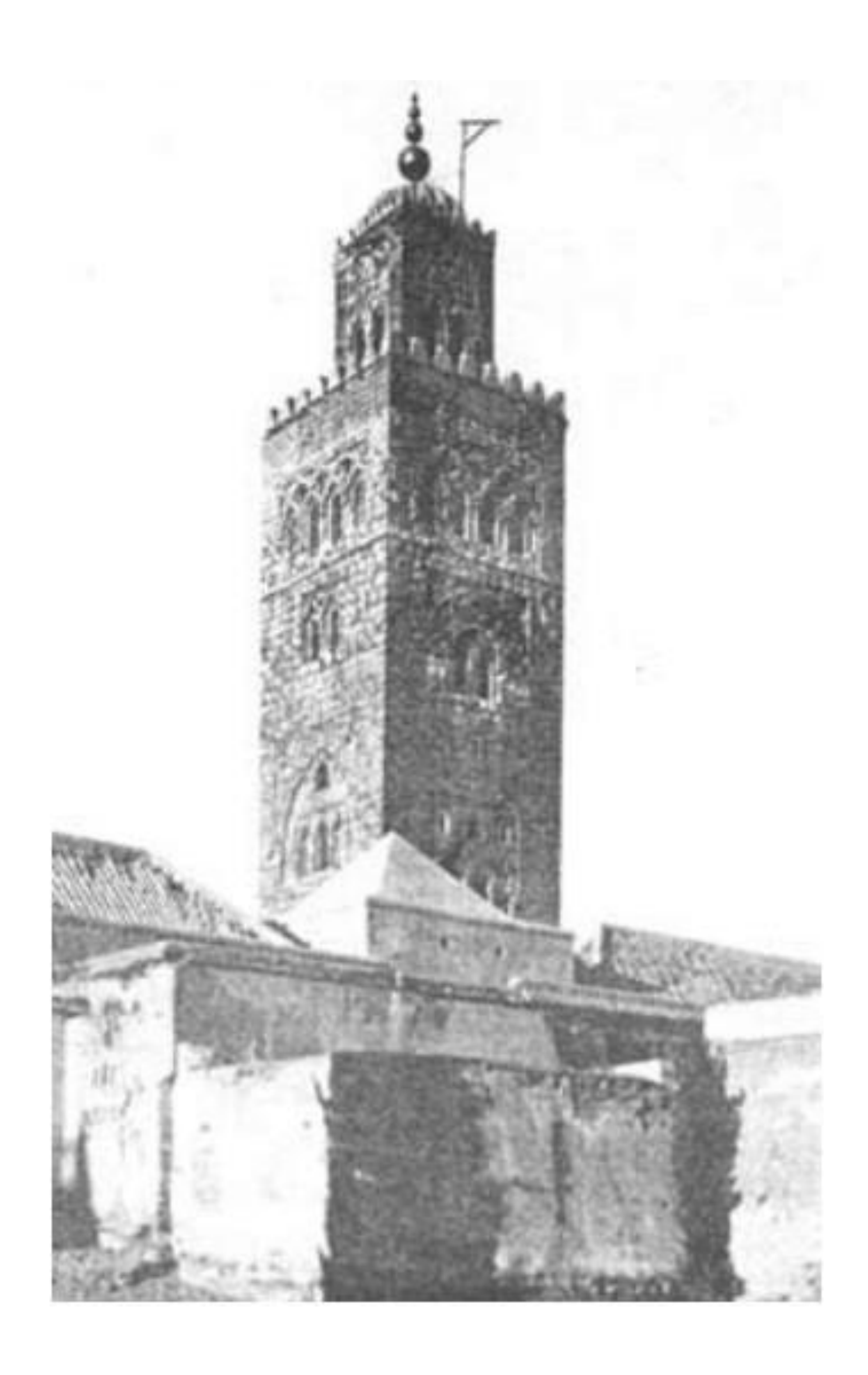
أسماء الدول	عهد كل دولة	عاصمتها، قواعدها، مجال نفوذها
مملكة كسيلة	69/689 - 64/684	القيروان، إفريقيا
الخوارج المغاربة بعد معركتي شلف وسبو (بكدورة)	123/741 اندثروا شيئا فشيئا في جل المناطق، بصفتهم خوارج.	المغرب الاقصى : أسس مكناسة مدينة سجلماسة 728/140 - 729 . المغرب الاوسط : صنهاجة في مدينة باجة -المغرب الادنى: هوارة في طرابلس، وبربر جبل نفوسة في قابس
برغواطة (من المصامدة)	127/745 451/1058	بلاد تامسنا، اي السهول الاطلنتية الممتدة من سلا الى آسفي
بنو عصام	القرن الثالث والقرن الرابع الهجريان.	مدينة سبتة
مكناسة (زناتيون)	القرن الرابع الهجري القرن العاشر الميلادي	أسسوا مدينتي تازا ومكناس، وحكموا فاس وتلمسان
بنو مدرار (زناتيون)	القرن الرابع الهجري القرن العاشر الميلادي	سجلماسة، والواحات المجاورة.
بنو يفرن (زناتيون)	القرن الرابع الهجري القرن العاشر الميلادي	عاصمتهم :إفكان، حكموا فاس وتلمسان وسلا وتادلا
مغراوة (زناتيون)	القرن الرابع الهجري القرن العاشر الميلادي	أسسوا وجدة، وحكموا فاس وتلمسان وسجلماسة.
بنو زيري (صنهاجة)	972/362 1152/547	تونس وشرقي الجزائر :القيروان، المهدية
بنو حماد (صنهاجة)	1007/398 1152/547	المغرب الاوسط :قلعة بني حماد، بجاية.
بنو زيزي (صنهاجة)	1018/408 1090/483	غرناطة، بالأندلس
بنو الأفطس (زناتيون)	1022/413 1095/487	بطليوس، بالأندلس.
بنو ذي النون (هواريون)	1028/419 1085/47	طليطلة، حكموا ما بين وادي الحجارة، وطلبيرة شمالا، ومورسيا جنوباً. أسمهم الحقيقي: بنو أزينون

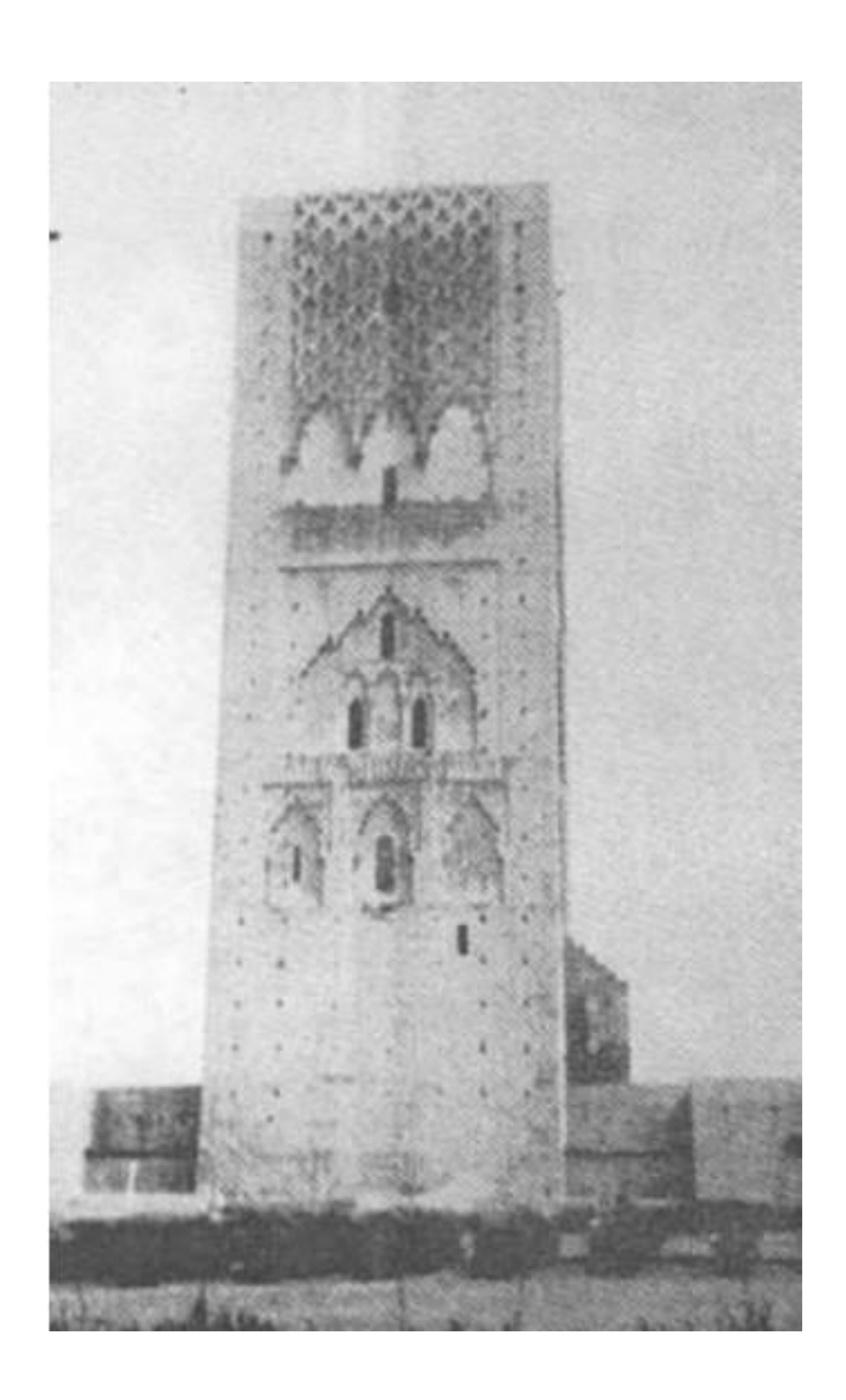
المرابطون (صنهاجيون)	1043/434 1147/541	عاصمتها، قواعدها، مجال نفوذها عهد كل دولة أسماء الدول أسسوا مراكش. حكموا المغرب الاقصى وغربي المغرب الاوسط والاندلس وموريتانيا الحالية
بنو غانية (صنهاجيون)	1146/541 1237/633	انطلقوا من غرناطة بالاندلس، وحكموا ميورقة وطرابلس الغرب وبلاد الجريد بإفريقيا
الموحدون (مصامدة وزناتيون)	1147/541 1269/668	عاصمتهم: مراكش. حكموا المغرب الكبير كله، الى طرابلس، والاندلس. أسسوا مدينة الرباط
الحفصيون (فرع من الموحدين)	1234/631 1509/976	عاصمتهم : تونس. حكموا إفريقيا كلها،ووسعوا مجال نفوذهم من جهة الغرب الى تخوم المغرب الاقصى
بنو عبد الواد أو بنو زيان (زناتيون)	1235/633 1569/915	عاصمتهم : تلمسان. نازعهم الملك المرينيون من جهة الغرب، ونازعهم إياه الحفصيون من جهة الشرق
بنو مرين (زناتيون)	1269/668 1465/869	عاصمتهم : فاس. حكموا المغرب الاقصى، وحكموا لمدة ما الاندلس والمغرب الاوسط وإفريقيا
بنو وطاس (زناتيون من قبيلة بني مرين)	1465/869 1549/956	عاصمتهم : فاس. حكموا المغرب الاقصى. تقلص مجال نفوذهم بالتدريج.

الثقافة الأمازيغية وثقافات الأمازيغيين

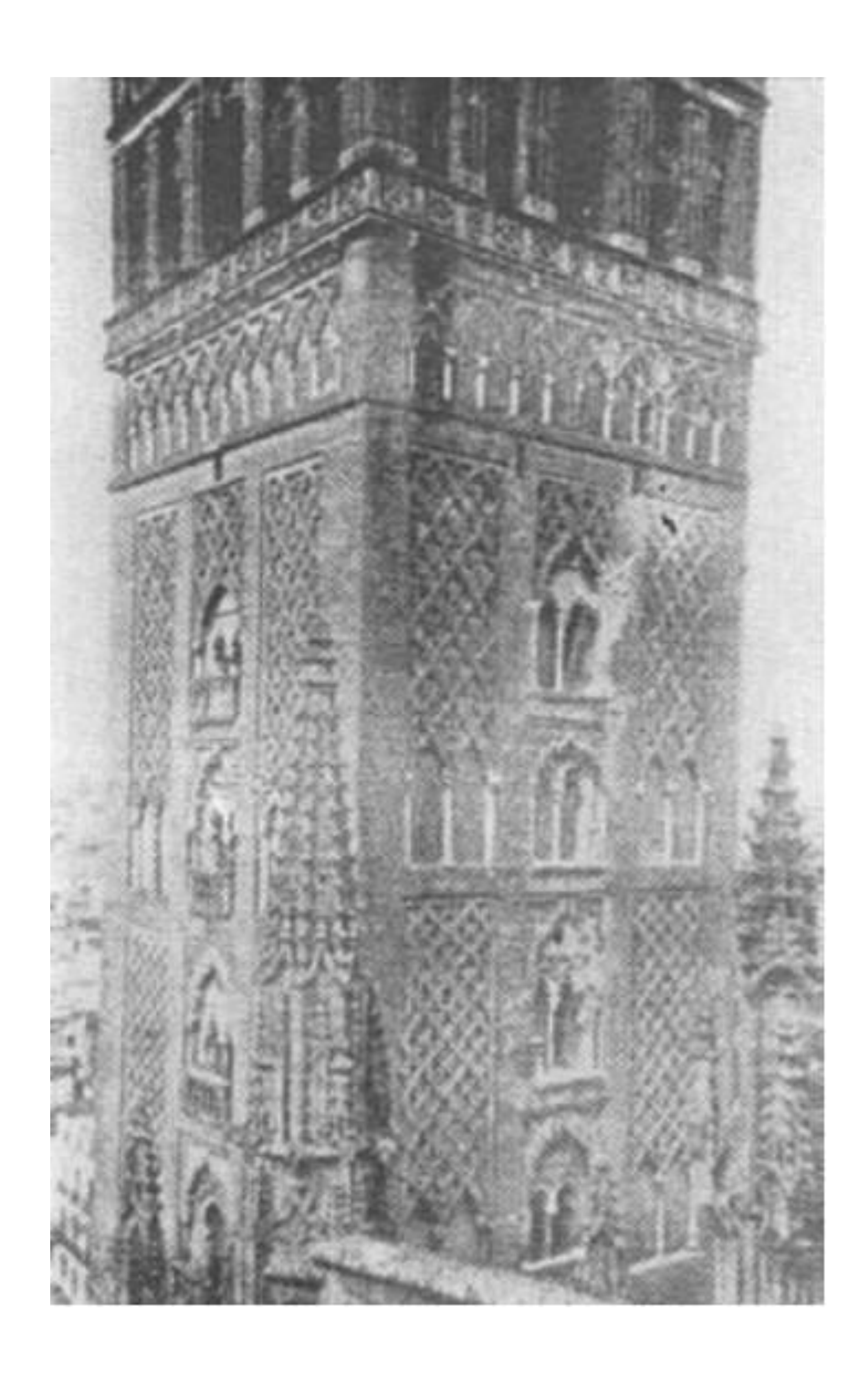
كثيـرا ما كُتِب وقيل إن «البربر» لم يُنشِـئوا قط ثقافة ذاتية يختصون بها. يعتبر هذا الحكم صـائبا من له تصـور تقليدي لمفهوم الثقافـــة، بحيث يجعله ينحصـر في حيز المآثـر الأدبية المكتوبة، ويعتبـره غير صائب مـن له تصور شـــمولي أنثروبولوجي عصري لمفهوم الثقافـــة، بحيث يرى أن التقاليد الاجتماعية والاختيارات والنزعات السـياسـية، والفنون بمختلف أنواعها، كالمعمار والرقص والغناء، والأدب الشـــفوي المروي جيلا عن جيل، من شعر وقصص وأمثال سائرة، يرى أن ذلك كله ثقافة، بالاضافة إلى اللغـة نفسـها، بطبيعـة الحال، ومـا تنفرد بـه من مميزات معجميـة وصرفية ونحوية واشتقاقية.

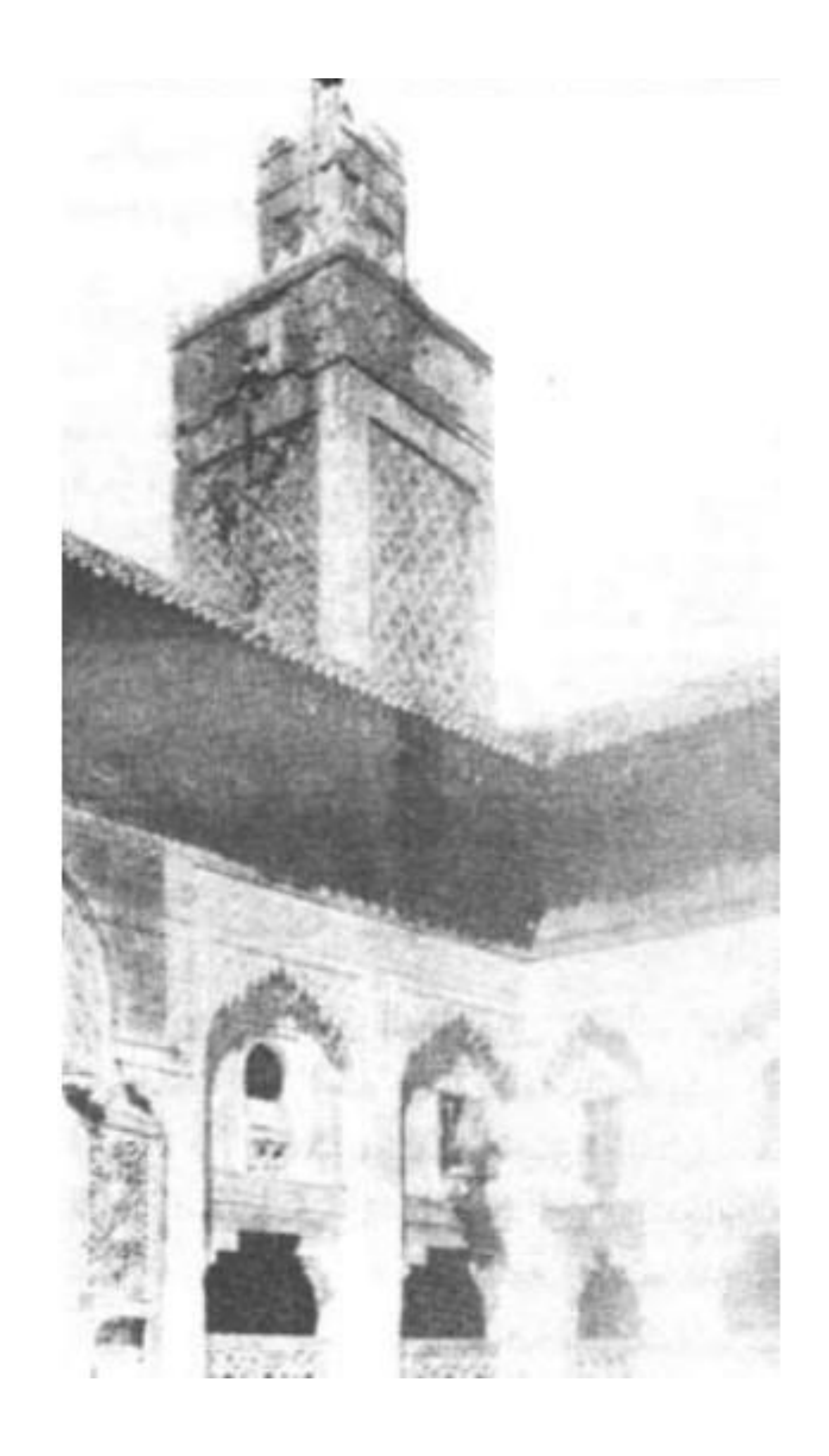
والـواقع أن للأمازيغيين ثقافـة خاصة بهم توارثوها عبـر العصور منذ آلاف السـنين، يصعب علـى الباحث أن يتتبع مراحـل تطورها فيمـا يخص الجوانـــب المعتمـــدة للكتابة، لكنه يستطيع أن يشخص بسهولة كل الجوانب الأخرى، ولابد في هذا الصدد من التنبيه إلى أن الثقافة الأمازيغية لم تنحصر، منذ ما يقرب من ثلاثة آلاف عام، في ما هو خاص بهم متوارث عندهم،











بـل كانت دائمـا «ثقافة مفتوحـة» غير منغلقة على نفسـها، ولكن بالضرورة لا بمحض الاختيار. ولذا ساهم «البربر» مساهمة مهمـة فـي تشـييد أركان الحضـارات والثقافات الكبـرى التي تعاقبت على شـواطئ البحر المتوسـط ابتداء من أواسط الألف الأول قبل الميلاد. أما سـبب تقوقع ثقافتهم الذاتية فمزدوج، أو هو في الواقع سـببان، **أولهما** هو نمط عيشـهم المطبوع بالبداوة. وسـنشـرح فيما بعد عوامل بداوتهم.

وثانيهما أن لغتهم لم ينزل بهـا كتـاب، فلم يخدمها دافـع ديني قط، كما خدمـت الدوافع

الدينية العبرية والعربية، وبدرجـة أدنى اليونانية واللاتينية. وقد تفطن لهذه الظاهـرة حاميم الغماري المتنبي إذ حاول، في أوائل القرن الرابع الهجري، أن يعارض القرآن في لغة أجداده، كما فعل من قبله صـالح بن طريف البرغواطي المصمودي، في أوائل القرن الثاني الهجري.

لثقافـة الأمازيغيـين إذن شـقان، أحدهمـا خـاص بهم، هو رصيدهـم الأول المتـوارث؛ بعـض عناصره شـبه مجمدة لاتزال محافظة على أشـكالها التي نشـأت عليها أول نشـأة في غابر الأزمـان، كالمعمار والزخرف في الزربية والخزف والوشـم وواجهات المباني؛ وبعضها يحتمل في وجوده أنه تطور عبر العصور، لكنه احتفظ مع ذلـك بطابعـه الأمازيغـي المتميز، كاللغـة والأدب الشـفوي والرقص والغنـاء والتقاليد الاجتماعية والسياسـية.

وشـق ثقافتهم الثاني هو ما أخـذوا عن الثقافـات الأخرى: عن الفينيقية واليونانية واللاتينية والعربية الاسـلامية (والفرنسـية والاسـبانية)، وما أسـهموا به في بلورة تلك الثقافات نفسـها .

١ ـ الثقافة الأمازيغية الأصلية المتوارثة:

أ ـ اللغة "البربرية":

مـن المعلوم أن عقليات الشـعوب لا تتطـور إلّا تطورا بطيئا جدا، لاتغير منها الانقلابات والصدمات إلّا ما هو على السـطح، ومن المعلوم أن اللغات هي التي تصوغ العقليات ما دامت تعمل فـي حقلها الأصلـي لم تنقل عنـه (Pour une sociologie du langage) وكل مـــن يعتـــرف بصحة هذه الأطروحــة التاريخية الاجتماعيــة يـُدرك أن اللغــة الأمازيغيــة مــن أهـم العوامـل الحضارية والثقافية التي كيفت الروح المغربية والبيئة الطبيعية التي نشـأت فيهـا، وقولَبت الفكر المغربي في كثير من جوانبه، طوال آلاف السنين، وبالتالي شكلت البُنية التحتية للشخصية المغربية الاسـلامية، أو لما سمي بالانسية المغربية على غرار الانسية الأوربية.

ومما يمكن لدارس اللغة الأمازيغية في العمق أن يسـتنتجه، أنها تسـتمد عبقريتها من تفاعلها مع طينة أفريقية الشـمالية وتجاوبهـا معها، حتـى إن جوانب معينـــة من البحث العلمـــي المتخصص تسـتوجب على الباحث إلمامـا بالأمازيغية، تسـتوجبه علـى المـؤرخ والسوسـيولوجي والجغرافـي والنباتي والجيولوجي، واللغوي المقارن .

واللغــة «البربريــة» لغــة قائمــة بذاتهــا، ليســت «لهجــة» متفرعــة عــن لغة أخـــرى، ولها هـــي لهجاتهـــا المتفرعة عنها (Boukous, Bulletin, 10..16) المنتشـرة فـي المغـرب والجزائـر وليبيـا وجنوبي تونـس وموريتانيـا ومالـي والنيجـر

(Langue et littérature..108,110, Encyclop. Berbère, IV, 563). وهـــي لهجـات تلتقي فـي أصـل واحد بصـورة واضحـة، لا في معطياتها النظرية فحسب، ولكن حتى في معطياتها المتصلة بالممارســـة والاســـتعمال. لقد كتب الباحث «المتمزغ» « أنضري باصي،» André Basset في الموضوع ما يلـــــي: "ينتقل (الباحث) من لهجة إلى لهجة دون أن يحس بأنه ينتقل". كُتِب هذا ســـــــنة 1929 (La langue berbère, p. IX)، ثم أضـاف بعد عشـرين عاما من مواصـلة البحـــــــــث، قائلا: "إن بنية اللغة الأمازيغية وعناصرها وأشـكالها الصرفية تتسم بالوحدة إلى درجة أنه إن كنت تعرف حق المعرفة لهجة واحدة منها اســتطعت في ظرف أســابيع أن تتعلـم أية لهجة أخرى، تدلـك على ذلك التجريـة، إذ اللغة هي اللغة نفســها. ولقد عَجِبتُ لذلك"...

Revue le Monde non chrétien, n° 11 juillet-sept, 1949, p 10 et)
(11

وتتجلـــى وحـــدة اللغة الأمازيغيـــة في الزمن أيضـــا، لأن بطء التطـــور الحضاري ساعد على استقرار المعطيات اللغوية (Basset, 1949, p 11) بحيـث يمكن القول إن الأمازيغية لو يُعنى بهـا العناية الكافية، ستسـاعد مؤرخي العصـر القديم خاصة فـي تعميق أبحاثهم. أمـا انتماؤها من وجهة نظر «اللســانيين» فقد بينه «مارســيل كوهـــن» Marcel Cohen فـــي أطروحته وفيمـا تبعها من مؤلفاته انطلاقا من ســنة ١٩٢٤ إذ برهن على أنهـا فرع من المجموعة الحامية الســامية. وقد صـارت منذ أواخر القرن التاســع عشـــــــر محط اهتمام لدى اللغويين المعنيين بتطور اللغات وبنواميس ذلك التطور، نظرا لحيويتها رغم اعتمادها على الشـــــــفوية وحدها (Les Origines)

(Science et vie, 52 à 63 berbères, p 113)، والواقع أن اللغة الأمازيغية لاتزال حية، محافظة على كيانها الذاتي الذي لا يتجلى بوضوح تام وبكل عناصره إلّا لمن كلف نفسه قليلا من الاهتمام باللهجات وما بينها من التداخل والتكامل، متجها وجهة التماس العوامل الموحدة، لا وجهة التماس العوامل المفرقة بينها كما كان يفعل عدد من «الباحثين» الفرنسيين. واللغة الأمازيغية في وضعها الحالي، أي بصفتها لغة حية يتخاطب بها الناس، في تلقائية وعفوية، قابلة للانتعاش والنمو والازدهار، لاسيما أن لها نظاما اشتقاقيا جد مرن يتفاعل فيه الاشتقاق الأصغر والاشتقاق الأكبر مع النحت والتركيب المزجي تفاعلا يضاعف إمكانات الخلق المعجمي اليسير المنال. وبدراسة هذا النظام في تفاصيله سيتمكن الخبراء من فك ألغاز النقوش القديمة التي استغلق أمرها عليهم حتى الآن، ومن تسليط بعض الأضواء على خفايا تاريخ أفريقية الشمالية .

هذه اللغة لها شعراؤها الذين يتغنون بها (إماريرن، واحدهم أمارير، وإمديازن، واحدهم أمدياز)، ولها قصاصها الذين يقصون على الأطفال أقاصيصهم، ما لم تدخل التلفزة البيوتات لتستحوذ على أذهان الأطفال بما تحمله إليهم من صور ومن معلومات في لغات أخرى يعسر عليهم فهمها ولها أمثالها التي يتمثل بها، ولها فصاحتها الخاصة بها. ولها ضعفها الذي لم يفارقها حتى اليوم رغم المحاولات، ألا وهو اعتمادها الشفويّة دون الكتابة.

فلم يُقدر التدوين من جراء ذلك إلّا لعدد ضــئيل من مآثرها الأدبية. أما الباقي فإنه ضاع في طيات النسيان، بعد أن ردده إثر نشأته جيل أو جيلان أو ثلاثة أجيال في أحسن الحالات، ومما دُوِّن نذكر على سبيل المثال شعر سيدي حمو السوسي المتعدد الأغــراض، الــذي يرجع عهــده إلى القــرن الثاني عشر الهجري (عمر أمرير) والشعر الديني التعليمي لمحمد أوزال من القرن الثالث عشــــر - هــ ، وشعر السي موحند القبائلي من القرن التاسع عشــر الميــلادي (Les Isfra de si Mohand) وهــو شــعر ذو نفس فلسـفي، وشـعر تاوكرات (Taougrat) الملحمي من أوائل القرن العشـرين، وعدد من القصائـد المتفرقة لشـعراء مختلفين من القرن العشـرين أيضا.
ومن كبار الشـــــعراء الذين لهم صيت في الجهة التي ينتمون إليها نذكر سليمان عازم، وسليمان الشابي وفاطمة عمروش ايت منصور، وموحند ومحاند والحاج رابح القبائليين، وعبد الرحمان ومسعود المتوكي.
وقد أصبح الشباب الأمازيغيــون يهتمون بتدويــن الأدب الأمازيغي الجديد وبالتنقيب عن القديم منه، بمحض وســائلهم، ويؤلفون تأليفا إنشــائيا يَعِد بالنمو، نذكر من مؤلفاتهم «وسان صميدنين، الأيام الباردة» لمومن علي الصافي، و«ئسكراف، القيود» لمحمد مستاوي.
من هــؤلاء الشــباب من يكتب بالحــروف العربية، ومنهــم من يكتب بالحروف اللاتينية، خاصة فـــي الجزائر، لأن اللغة الأمازيغية تخلت عن أبجديتها الذاتية منذ دخول «البربر» في الاســلام، حسب ما تــدل عليــه القرائن، ولم يحتفــظ بها إلّا قبائــل التوارك، غير أن حروفا منها لا تزال تُدرج في زخارف الزربية المغربية.

ب ـ الكتابة الأمازيغية القديمة:

حسب ما أثبته البحث إلى حد الآن، لم ينشأ على أرض القارة الافريقية كلها إلّا أبجديتان اثنتان. بصرف النظر عن الهيروغليفات. هما الأبجدية الأمازيغية والأبجدية الأثيوبية. (Berbères, Camps, 275) وقد أثبت البحث أن ظهور الحروف الأمازيغية الأولى يرجع عهده إلى فجر التاريخ، وأن مجال انتشارها يمتد من شمالي السودان إلى الجزر الخالدات غربا وصقلية والأندلس شمالا

(Histoire du développement...II,26 Berbères, Camps, 277)

تسمى هذه الحروف «تيفيناغ»، وقد أُوِّلَت هذه التسمية تأويلات مختلفة، أسرعها إلى الذهن هو أن الكلمة مشتقة من« فينيق، فينيقيا »وما إلى ذلك. قد يطابق ذلك اصل هذه التسمية، وربما لا علاقة له به، ولكن المحقق هو أن الكتابة الأمازيغية غير منقولة عنها، بل رجح الاعتقاد بأنها والفينيقية تنتميان إلى نماذج جد قديمة لها علاقة بالحروف التي اكتشفت في جنوبي الجزيرة العربية. وقد أشرنا إلى هذه العلاقة فيما سلف. لقد كانت الأبجدية الأمازيغية في المراحل الأولى من وجودها تتكون من «حروف صامتة» Consonnes، هي المعنية بـ«تيفيناغ.» ويعتقد أن عدد تلك الحروف الصامتة كان ١٦

حرفاً (Les Origines berbères, p 61) وأنه صار ٢٣ حرفاً في عهد المملكة المازيلية النوميدية (Berbères, Camps،277) وقد أضيفت إلى الحروف الصامتة في زمن متأخر حروف صائتة، Voyelles سميت « تيدباكين»، تقابل الفتحة والكسرة والضمة. وتسمى الأبجدية في مجموعها «أكامك»

كان الأمازيغيون القدماء يكتبون بهـذه الحروف على جدران الكهوف وعلى الصخور، من الأعلى إلى الأسفل، في أول عهدهم بالكتابة. ثـــم كتبوا في جميع الاتجاهـــات، ودام ذلك الوضع إلى أواخر القرن التاســع عشـــر الميلادي، حيث أخذ التوارك يستقرون على الكَتَب

من اليمين إلى اليسار تقليدا لما هو معمول به في العربية.

وقد ترك لنا القدماء على الصخور والصفائح الحجرية، ما يربو على ألف نقـش (Marcy, Chabot, Reygasse) وتركوا عددا من النقوش التذكارية في تونس والجزائر خاصـــة، فيها ما هو مصـحوب بترجمته اللاتينية أو الفينيقية. وقد قام الباحث «جورج مارســي» Georges Marcy بمحاولة جادة من أجل شــــرحها، لكن معظم النقوش الأمازيغية القديمة لا تزال تنتظر اختصاصيين يُشــتَرط فيهــم أن يتقنــوا الأمازيغية أولا، ثم إحدى اللغات الميتة الآتية:

الفينيقيـة أو اليونانيـة أو اللاتينية. يوجد فـي المغرب نماذج من النقـوش على الصخر في «عزيب نيكيـــــس » و «ياكور» بالأطلس الكبير، ونقش «صفيحة أزرو» ونقش صفيحة تيفلت (Chabot) وهنا يجب التساؤل: هل سُـمّيت مدينة « تيفلت » بهذا الاسـم على طريق المصـادفة ليس غير؟ لأن «تيفلت» في الأمازيغية هي «الصفيحـــة» الحجريـــة بالذات، حســـب ما احتفظت بـه اللهجة التركيـة من معاني الألفاظ الأصلية. نقـش بالحروف الأمازيغية متوغل فـــي القدم، يوجد بالمكان المســـى "عزيب نـيكيس" في الأطلس الكبير الفارس الأمازيغي الرافع لقرص الشمس المشعة؛ وعلـــى يمينه نقش بحروف "تيفيناغ" ويوجد في الصحراء المغربية في نواحي سمارا حسب شاهد عيان. هو الدكتور حمداتي ماء العينين.

نصوص كاملة بحروف «تيفيناغ» نُقِشت في عهدٍ ما على صفحات صخور كبيرة. وهناك في المغرب أيضا صفائح أخرى معروفة: "صفيحة أنجرا" المعروضة في متحف تيطاون، وصفيحة «عين الجمعة» وصفيحة «سيدي سليمان» (متحف الرباط)...

وعلى سبيل المثال نورد هنا أحد السطور الثلاثة من النص المنقوش على «صفيحة تيفلت» (متحف وليلي) :

هذه النقوش الأمازيغية القديمة كانت أكثر انتشارا في البوادي والأرياف منها في المدن. (Camps) أينبغي أن يعتبر ذلك سببا لتراجع الكتابة «البربرية» أمام البونية فاللاتينية فالعربية؟ أم ينبغي أن يعتبر نتيجة لتوازي التمدن مع استخدام الحرف البوني، ثم اللاتيني، ثم العربي؟ ومما هو ملحوظ منذ عقدين على وجه التقريب هو أن جماعات من المثقفين يحاولون أن يحيوا الحرف الأمازيغي القديم، وقد توصلوا إلى صنع آلات للرقانة به، لم يسمح ببيعها في الأسواق .

ج ـ الفنون الأمازيغية التعبيرية:

مع أن اللغة الأمازيغية جردها الزمان من كتابتها، ومع أن الناطقين بها لم يعنوا كثيرا بتدوين إنتاجاتها الأدبية، ومع أنها لم تكن قط لغة تلقين أو تعليم، ولم تكن موضوع بحث وتحليل إلّا ابتداء من القرن الماضي، فقد ظلت حية في أفريقية الشمالية كلها والصحراء الكبرى إلى يومنا هذا، إما في مناطق شاسعة يتخاطب بها في كل مكان، وإما في «جزر لغوية شاهدة» أي في أماكن محدودة المساحة تكون عبارة عن مواطن لقبائل صغيرة،

أو عن مجموعة قرى متجاورة، أو قرية منفردة، أو واحة من الواحات، أو حتى عن بيت واحد أو متجر يوجد وسط بيوتات أو متاجر في قلب مدينة كبيرة مستعربة. تتجلى حيوية اللغة الأمازيغية في التلقائيـــة التي يتكلمها الناس بها، وفي الأغاني والقصائد التي يروجها شـعراؤها. وقد تعصب أحد أولئك الشـــــعراء لـــ «لغته الأم» إلى درجة أنه زعم بأن الغزل يستحيل بسواها، إذ قال :

في لُغة أُمي

بُحتُ إليكِ، حبيبتي، بِسرّي!

كيف يَفعل، يا تُرى مَن يَجهل لُغة الأمازيغ ؟

أَبِكلمةُ حُبٍّ، أَبَداً، لا يَنطقُ؟

وهو قولٌ يُذكّرنا بقول أحد شيوخ الأدب العربي القدماء "إن الهجو باللغة العربية لأَحَبُّ إليَّ من المدحِ بالفارسية.!"

أغراض الشعر الأمازيغي متنوعة، وكذلك أصنافه وموازينه

انظــر (:Renisio, Laoust, Maâmmri, De Foucauld ، وعمــر أمريــر، ومحمد شفيق) وقد ظهرت في الثلاثين سنة الأخيرة حركة تجديد لقوالب العشر في مناطق مختلفة، لاسيما في

الشعر المتغنى به. أخذ مغنون شباب يقلدون أنماط الموسيقى العصرية، أمثال العموري في المغرب، وإيدير، وجمال علام، في الجزائر. وقد انتشر صيت المجموعـــات الغنائية الآتية: أوســـمان = البروق، «جمع برق » و إزنزارن = «الأشـــــعة » و أدراو = «المأدبة» في المغرب، و «الجرجورة » في الجزائر.

ومن تقاليد الأمازيغيين العريقة الرقص الجماعي المصحوب بالغناء. وهو الذي قال فيه أحد الخبراء الغربيين «إنه من إيحاء تموجات السنابل... أو الكثبان في الصحـــــــراء، او أعراف الجبال في الآفـــــاق Tableau de la musique)... نقـلا عــن Paul Hector) والرقص الأمازيغـي أنواع كثيرة، أهمها «أحيذوس» و «أحواش.»

أما رقصات «الشيخات» فليست من التراث الأمازيغي في شيء، وإنما هي «بدعة» أقحمت فيه على يد « قيّاد» الاستعمار، اسـتوردوها من المحلات المشبوهة التي تكاثرت في المدن المغربية طيلة عهد «الحماية». وليس مـن المبالغة أن يقال إن الرقص الأمازيغي التقليدي هـو الرقص الكلاسيكي المغربي. وليس للمغرب رقص غيره لـه ميزة تستحق الاعتبار يُرشّح بها لأن يمثل الشـــــــخصية المغربية. لكن هذا الرقص صنّفه الفرنســـــــيون «فولكلـوfolklore» فتبعهم في ذلك المسؤولون الوطنيون عـن الفن، فلـم يُقيَّض له من ينهض به. ولذا صـار يفقد رونقه الأصلـي ويفقـد تلقائيتـه النابعة من روح الابتكار الجماعية العاملة بدوافعها الذاتية.

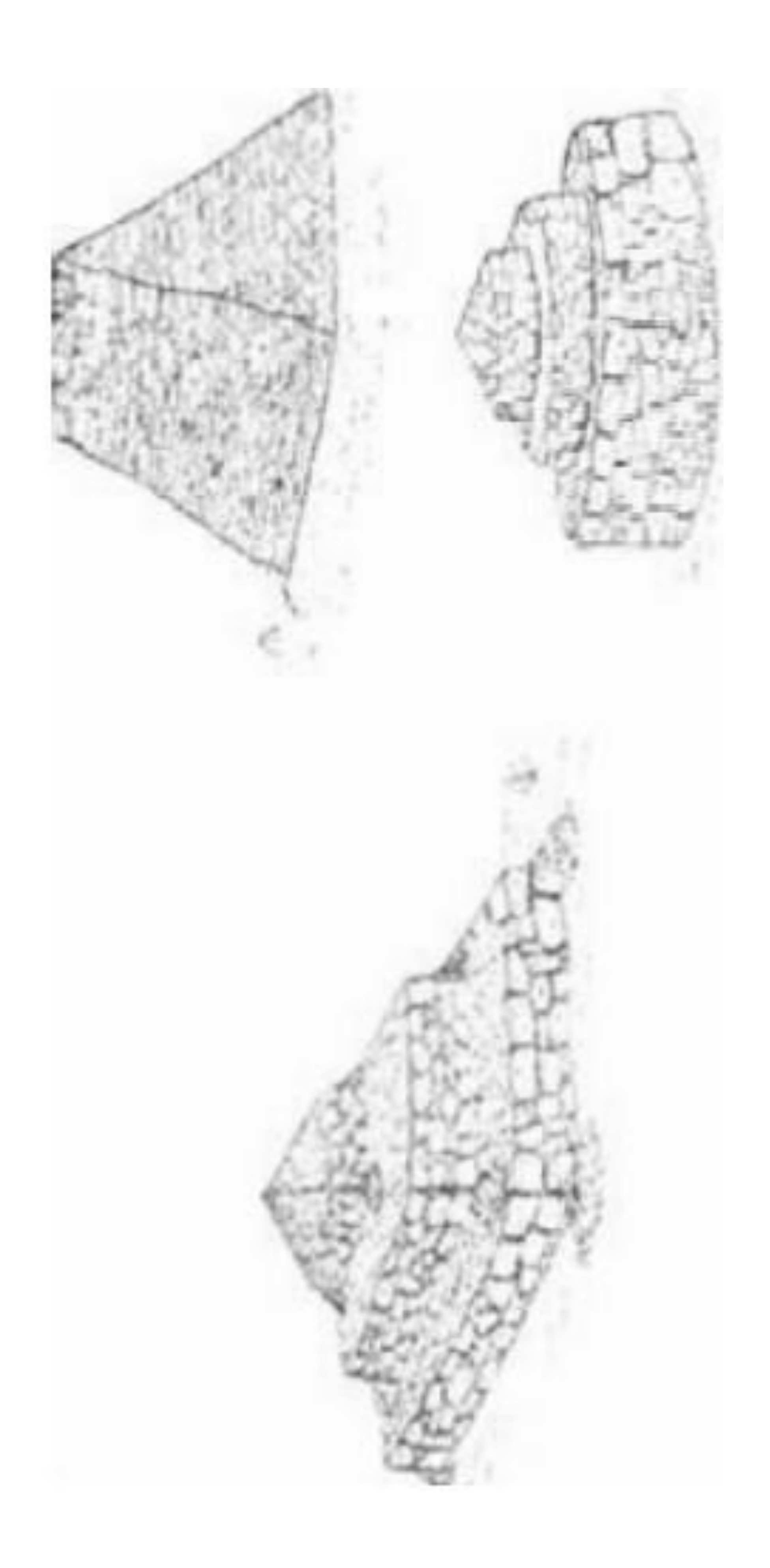
د-المعمار والزخرف الأمازيغيان :

الآثـار المعماريـة الأمازيغيـة ضاربة فـي القـدم، يرجع عهد عناصرهـا الأولى إلى ما قبل التاريخ. تلك العناصر الأولى عبارة عن أضرحة بسيطة، بني كل واحد منها على شكل ركام من الحجارة يسمى الآن عند التوارك

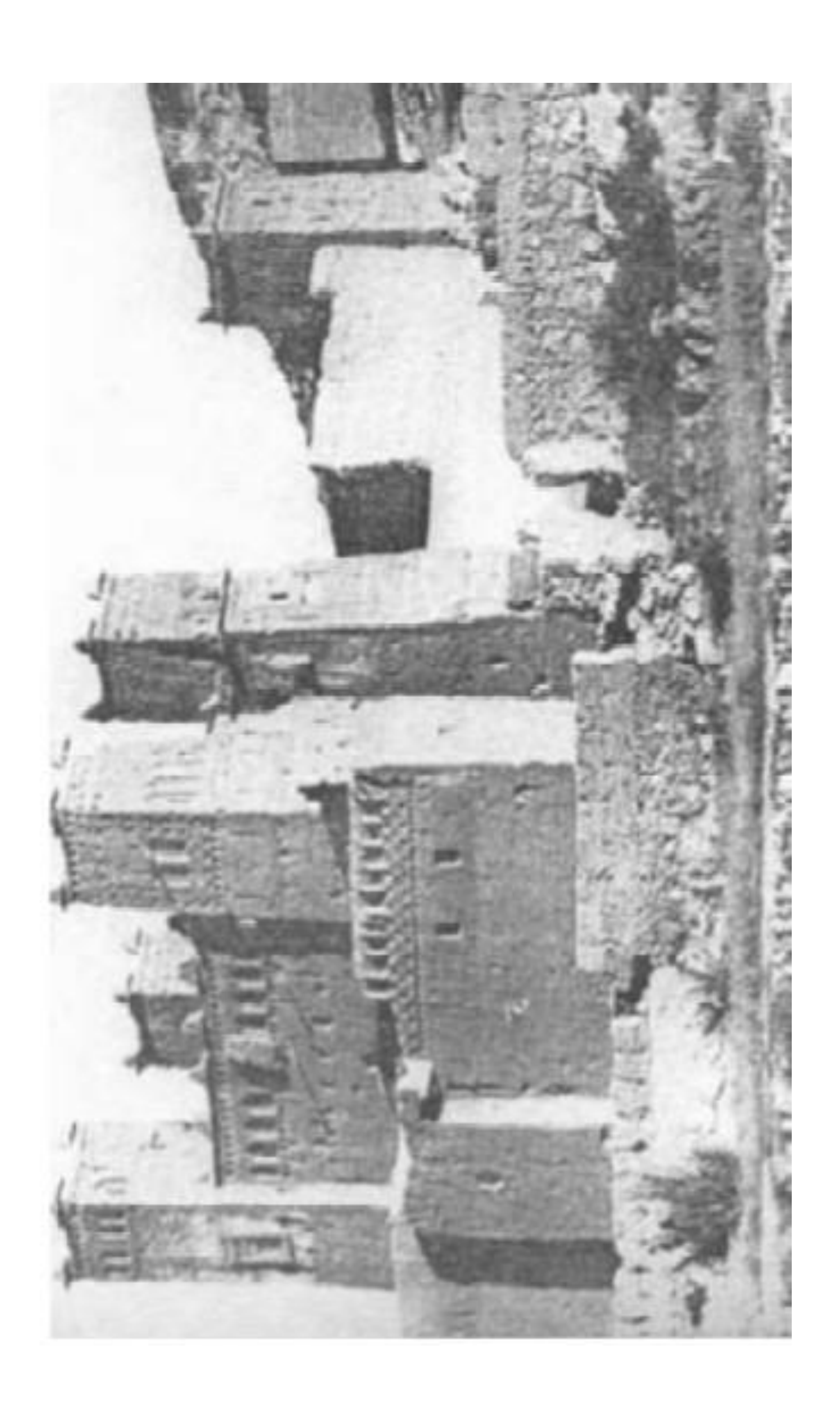
«أدبني ج إدبنيين» وقد تطورت فيما بعد

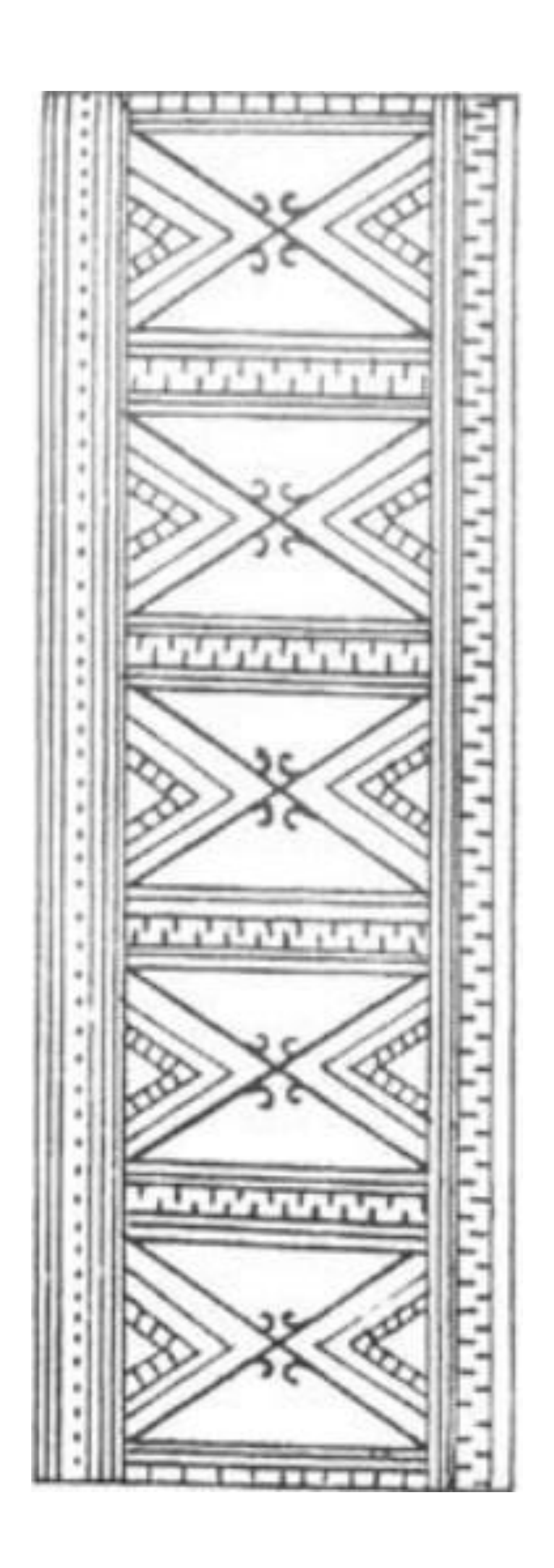
تصاميم تلك الأضرحة إلى أن صارت أشكالها إما هرمية مربعة القواعد، وإما مستديرة القاعدة مدرجة من الأسفل إلى الأعلى في طبقات. هذه الأضرحة الأخيرة تسمى «بازينا» وهي مبنية من الحجارة المتراصة، وأصل اسمها حسب ما نرجح راجع إلى كون بُنيانها غير معقود بملاط، لأن مادة «بزن» في اللغة الأمازيغية تفيد انعدام الإدام مع الخبز، أو انعدام الملاط مع حجارة المبنى؛ فالخبز الحاف يسمى «أبازين»، وكذلك الحائط المبني من الحجارة المُنضّدة دون تمليط.(Berbères, Camps, 84,85) وفي مراحل تاريخية أخرى صارت الأضرحة عبارة عن مبانٍ شاهقة في شكل منارات مكونة من أربع طبقات أو خمس، علياها أصغر حجما من سفلاها، أو عبارة عن مبان مخروطية الشكل أسطوانية القاعدة يبلغ ارتفاعها ثلاثين مترا فأزيد، ويبلغ قطر دائرتها حوالي ستين مترا؛ وهي مبنية من الحجارة المنحوتة أيضا. هذه الأضرحة، بنوعيها منسوبة إلى الملوك الأمازيغيين القدماء، يوجد من نوعها الأول اثنان في تونس الحالية، أحدهما بمدينة دوكة (ثوكا القديمة)، والآخر بشمتو (سيميثو القديمة)، وواحد بالجزائر في المكان المسمى «الخروب». ويوجد من نوعها الثاني اثنان بالجزائر في كل من «قبر النصرانية» و «ميدراسن»، وبقايا مجموعات منها بالمغرب في سهل سايس، قرب عين تاوجضات، وفي سهل الغرب قرب مدينة سيدي سليمان (تل سيدي سليمان، (L'Afrique du Nord, 70 ولهذا النوع الأخير من الأضرحة الأمازيغية القديمة خصوصيات معمارية تجعله منفردا في تاريخ المباني الأثرية .

ومن الأنماط المعمارية الأمازيغية













التـــي نفذت إلى عصرنا من أعماق التاريخ تلـــك التي تبنى على غرارهـــا «القصور» الجماعيــة «إغرمان» التـي مفردها «إغرم» و «القصبـات» (« تيغرمين»التي مفردها « تيغرمت») المنتشــرة في الأطلس الكبيــر ، ومخازن الحبوب العموميـــــة («إكودار» التي مفردهــــا «أكادير») .(Greniers) Citadelles وقـد نفـذت إلينـا معهـا أنواع من الزخرف، كلها عبـارة عن تشــكيلات هندســية أساسها الخط المســتقيم، تزين بهـا واجهات المباني السـالفة الذكر، في الأطلس الكبيـر والـواحـات، وتزين بها الزرابي والحلي الفضية والآنيــة الطينية والخزفية. هذا، ثم إن المعمار المغربي الاســلامي مطبـوع هو أيضا بـروح الفن الأمازيغي الميالة إلى البسـاطة
وتوخي المتانة، يتجلى ذلك أحســـن ما يتجلى في أشكال المنارات المربعـــة القاعدة، عامـــة، وفي منـــارات الموحدين الثـــلاث خاصة: منارة الكتبية بمراكش، ومنارة حســـان بالربـــاط، ومنارة «الخيرالدا» بإشبيلية . منارة "الخيرالدة " بإشبيلية، وهي من منشأت الدولة الموحدية.
وإذا أضفنـا إلى المعمـار والزخرف قائمة بالرسـوم التمثيلية الكثيـرة التـي رســـمت بالنقـــوش أو الألـــوان علـــى الصخور في الكهـــوف والجبال والصحاري منذ العهـــد الحجري الجديد، تكتمل لدينـــا صـــورة الفن الأمازيغـــي القديم، وما اتســـم بـــه وجوده من اســـتمرارية نادرة. نخص بالذكر من الرسـوم المنقوشـة: العربة ذات الأفـراس الأربعـة (وادي أزكـزا، بـتـــاركا، وتاركا هـــي الفزان)، وصياد الأروي (تينزولين، جنوبي المغرب)، والفارس حامل الشمس المشـــعة (أبيزار، بجبـــال القبائـــل بالجزائر)، والفـــارس المحارب (في منطقـــة أيير التركية، بمالي)، ومن الرســـوم التي صورت بالألـوان: الفرسين المتجابهين (إقليم بشـار بالجزائر)

والنســاء المتبرجات، والصياد حامل الرمح، والرقصات البهلوانية حول ثور (بتاسيلي ناجر، صخرة الثور، في جبال التوارك، بالصحراء الجزائرية).

٢ ـ ثقافات الأمازيغيين، أو مفعول « المثاقفة».

أ ـ البونية ثقافة فينيقية أمازيغية:

لأمــــر ما كان الرومان يفرقون في التســـمية بـــين الفينيقيين الأصـــلاء (Phoenicius) والبونيين (Punicus) والافارقة Afri، واحدهم Afer . راجع تعليق Desanges على Plinius، ص٢٢٦)

إن السـبب في نظـر المختصين هـو أن الجاليـات الفينيقية التي استوطنت المواقع الساحلية على ضفة البحر المتوسط من برقة إلى طنجة وعلى جزء من شـــــاطئ المحيط الأطلنتي، وحولتها إلى مراكز تجارية، اختلطت شيئا فشيئا بالأهالي الأمازيغيين – بحكم التعامـل السـلمي الموصول على مـدى قرون، والمتجـــــرد عن كل تعصب ديني - إلى درجة أنها أصبحت تتميز في مقومات حياتها الماديـــة والمعنوية، عن فينيقيـــي فينيقيا وعن الأهالـــي الأفارقة، أي«البربــــر» الذين بقوا على طبيعتهم الاولى. البونيون إذن جيل من الناس امتزجت فيهم الشـــخصية الأمازيغية بالشـــخصية الفينيقيـــة امتزاجاً بطيئاً هادئـــاً، بما تحمله كل واحدة منهما من مميزات، فكان لذلك انعكاســـات علـى ثقافة قرطاجة وغيرها من المدن الساحلية والقريبة من الساحل، وتكونت لغة «عامية» بين الفينيقية والأمازيغية

(L'Afrique du Nord, 59...63). فإن كان الباحثون الأول غفلوا عـن هذه الحقيقة فلأن

الارث البوني المدون مكتوب بالحروف الفينيقية، وبالحـــروف الفينيقية مجردة من كل حركة صائتة (Voyelles) ولأنهم كانوا يغفلون عن توظيف معطيات اللغة «البربرية» في تشخيص الألفاظ والأسماء
(Les Inscriptions libyques,5...16)
ولهذا أصبحت الآن أسماء، كان يعتقد أنها قرئت على أوجهها الصحيحة، مثار شـــك وتســـاؤل، أكثرها شـــهرة أسم الإلهة «تانيت»، أهو كذلك «تانيت» أم هو « تينيـت» أم «تينّيت» (La Carthage 175, Berbères, 115 ») وما أســـم هذه الإلهة، بصيغته «البربرية»، في قراءتيه أو قراءاته، إلّا دليل على أن قرطاجة كانت تُدين بدين الأمازيغيين القدماء، بما أنها بوأت «تانيت» مكانة الصدارة في معابدها وجعلتها هي «ربة المدينة» (La Carthage punique, 175). وقد ورد في نصوص قديمة ما يســـتفاد منــه أن الكهنة وســـدنة المعابد في قرطاجة كانـــوا أمازيغيـــين. (Silius Italicus, 8) في معظمهم . ولدينا في أفريقية الشـــمالية نموذج تاريخي آخر من نماذج المصاهرة الحضارية الموفقـة، ألا وهو نمـوذج انصهار العرب و «البربـر» معا في بوتقة العقيدة الاسلامية .

ب -إسهام ملك أمازيغي قديم في إغناء الثقافة اليونانية:

لـــم يكـــن الأمازيغيون يجـــاورون اليونان مباشـــرة، ولم يكونوا دائمـــي الاتصال بهم. لكـــن ثقافة اليونان فرضت نفســـها على حوض المتوســـط كله، ابتداء من القرن الخامس ق.م. بفضل سمو الفكـــر الاغريقـــي آن ذاك. فلا غرابة إذن أن يكون الملك المازيلي« ماسينيزا»

يستقدم إلى عاصمته « قيرطا» العلماء والفنانين من أثينا، ولا غرابة أن ينبغ في شتى فروع العلم والمعرفة حفيده، ربيب روما، يوبا الثاني، وأن يصنف باليونانية، في التاريخ
والجغرافيا والفلسفة والأدب وفقه اللغة المقارن. فتعجَّب من نبوغه «فلوتارخوس» Plutarkhos ومن كون «بربري نوميدي (يصبح) أكثر الأدباء ظرفا ورهافة حس (Les Africains, IX،146) ونصب له الاثينيون تمثالا في أحد مراكزهم الثقافية (Gsell + Les Berbers, I, 49, 50) تقديرا لكفاءته الفكرية، وقد نقل عنه علماء العصر القديم، وحسده معاصروه منهم ونَفِسوا عليه نبوغه، بصفته «بربريا» barbarus وكأن نفاستهم عليه تسربت إلى نفس المؤرخ الفرنسي Stéphane Gsell، إذ ما فتئ Gsell يحاول أن يغض من قيمة أعمال يوبا الفكرية، فتبعه في ذلك تلامذته من الأوربيين الذين أرَّخوا للمغرب الكبير في عهد الاستعمار الفرنسي، (Les Africains, IX, 157,58,61)
كما تبعوه في تحاملهم على أبيه يوبا الأول من أجل حرصه على سيادة مملكته. والدافع عند Gsell ومن تبعوه هو أنهم كانوا يعتبرون الفرنسيين ورثة للرومان في أفريقية الشمالية، ويرون أن «الأهالي» Les indigènes لايمكن أن يكونوا إلّا «أهالي» في الماضي والحاضر على السواء، بما أُشرِبَته الكلمة في لغتهم إذّاك من معاني الاحتقار.
ومن مؤلفات يوبا الثاني نخص بالذكر كتابه المعنون ب «ليبيكا»، لأنه عني فيه ببلاد الأمازيغيين. ومن الطريف أن يوبا أشار في ذلك الكتاب إلى قصة «الأسد الحقود»



التي لاتزال الجدات في بوادينا، إلى يومنا هذا، يقصصنها على أحفادهن باللغة «البربرية» في ليالي السمر من فصل الشتاء. إن في ذلك لدلالة على أن الأدب الشفوي قد يُحفظ خيرا مما يُحفظ المدون. ولقد كان يوبا الثاني ذا ذوق فني رفيع، حسب ما أجمع عليه المؤرخون لعهده (Les Africains 161) قصة الأسد (Gsell،VIII, 263) وقد لزم ذكره ذكر طبيبه «أوفوربوس،Euphorbus» الذي اكتشف ما لأحد النباتات المحلية من قدرة على تنشيط الفكر وترويح النفس. وباسم ذلك الطبيب يسمى ذلك النبات، في اللغات الافرنجية إلى اليوم: ....،... ,euphorbia euphorbe وهو الفربيون، أحد أنواع اليتوع أو التيوع المعروف بـ «تاناغوت» و «تاناخوت» في الأمازيغية.

ج ـ أمازيغيون قدماء يتصدرون مصاف المفكرين والأدباء اللاتينيين:

نتج من مفعول «المثاقفة» L'acculturation المفروضة من قبل روما على افريقية الشمالية أن نبغ في الكتابة باللاتينية أجيال متتابعة من الأمازيغيين، فأسهموا إسهاما مهما في إغناء الفكر والأدب الرومانيين، حتى من قبل أن تكون الأمبراطورية قد بسطت نفوذها على مواطن «البربر»، بما أن أول أديب أمازيغي الأصل لاتيني اللغة عاش في النصف الأول من القرن الثاني قبل الميلاد، اي قبل نزول الرومان في أفريقية.

- أديبان أمازيغيان من عهد الوثنية: أولهما« تيرنشي آفر، أو تيرنتيوس آفر»(Terentius Afer 185 ؟ - ١٥٩ ق.م.).

لقد كان مـــن عواقب الحرب البونية الثانيـــة وانهزام قرطاجة فيهـــا، أن حُمِلَ إلى روما صبي أمازيغي أسـير، فاتخـذه أحد أعضاء مجلس الشـيوخ غلامـاً له، ثم أعتقه. فسـمي الطفل بأسـم سـيده «Terentius» بالاضافـة إلى نسـبه «آفـر،Afer» أي الأفريقي. فتضلع من معارف زمنه، فـي اللغتين اليونانية واللاتينيـة، إلى أن فاضـت قريحته وهـو ابن العشـرين، فألف سـلسـلة من سـت مســـــرحيات، كان يطالع الجمهور بواحدة منها في كل سـنة، ما بين ١٦٦و ١٦٠ق.م. فصارت له شـهرة كبيرة دفعـة واحدة، ونال الجوائز، فحسـده الحسـاد واتهموه بالسـرقة الأدبيـة، فدافع عن نفسـه بما كان له من قـــوة. فأنصفه التاريخ مـــن بعد، ورد إليه نقاد العصور المتعاقبـة اعتباره كاملاً وبينوا أن تأثيـره في الأدب المسـرحي بقي ظاهرا إلى حدود القرن السـابع عشـــر. ومن مؤلفاته «الاخوة» Fratres «معذّب نفسـه» Meus carnifex و «الخصـي» Eunuchus وهو صـاحب القولة المشهورة:

"أنا إنســان، لا يُخفى عني أي شـيء مما هو إنساني"! ومن إفراطه في حب الأدب أنه مات حزنا بأرض اليونان، بعد أن ضيّع في البحر مخطوطات له، وهـو ابن الثلاثين (Les Grands Ecrivains du Monde, 238)

وثانيهما "أبولاي" Apuleius, Apulée

وُلِـد «أبولاي، أو أفولاي» بنوميـديا في أوائـل القرن الثـاني، حوالي١٢٥م. وتوفـــي حوالـــي ١٧٠م. بعــد أن تعلم بأثينا رجـــع إلى بلده. فإتُّهِم هناك بممارســة السـحر. فدافع عن نفسه بصلابة، وألَّف فـي الموضوع كتابـا عنوانه « في السـحر» . Magicae وبعد ذلك

تفرغ للتأليـف الجاد، إلى أن أصدر كتابا، في أحد عشـر جزءا، وبه وضعه تاريخ الفكر في مصاف كبار الكتـاب العالميين الخالدين. فـي كتابـه ذاك، «التقمصـات » Les Métamorphoses اتخـذ الروايـة الطويلـة النفس مطيـة لوصف الأوضـاع الاجتماعية وانتقادها في سـخرية حينا، وفي شدة وصرامة أحيانا. فدافع عن المســـــتضعفين، وطرق بكيفية غير مباشرة موضوعات فلسفية، مظهـرا لنزعتـه الصوفية، ولتشـوفه إلى الديانات المشـرقية النشـأة ولولوعـه بعبـادة الإلاهة المصريـة «إزيـس» .Esi, Isis فوُصـف بـ«النوميدي المزعج»، ولكن اعتـُرِفَ له بصدق التعبير وبالبراعـة في فني القصص والكلام. وكان هو نفسـه يصرّح بأنه تأثر في عمق بالفكر اليوناني (Les Grands Ecrivains du Monde, 370)

- كاتبان مسيحيان أمازيغيان في عهد المحنة:

مـن أبرز الكتـاب الأمازيغيـين القدماء الذين قامـوا بالدعوة للمسـيحية واتخذوهـا سـلاحا لمقاومـة الاسـتعمار الروماني - إذ كانـت رومـا لاتـزال وثنيـة - «تارتولـي» Tertullianus و«أرنوبـي» Arnobius وقد عاشـا كلاهما فـــي «عهد المحنة» إذ كان النصارى يُعذّبون، ولم يكن يدافع بالقلم عن النصرانية إلّا« الأفارقة (Histoire du développement...II,762,763 «)

- تارتوليا Tertullianus (حواليا ١٥٥ - حواليا ٢٢٥):

نشــــأ على الوثنية، ثم تنصّر وتحمّس تحمّساً كبيراً للدفاع عن دينـــــه الجديد، ودعا إلى التمسـك بتعاليم المسـيح القويمة وإلى التخلي عن روح الطبقية الكنسية. وحرض الناس على التخلص من الخدمة العسكرية

في الجيش الروماني. يعتبر كتابه «دفاعا عـــن الديـــن» Apologeticus إحـدى اللبنات الأولى الأساسـية التي دشـن بها الأدب المسـيحي المتخصص في معالجة القضايا الخلقية في ضـــوء العقيدة. صدر ذلك الكتاب ســـنة ١٩٧م) (Les Grands Ecrivains du Monde, 370)

- أرنوبي الأكبر: Arnobius

وُلـد هذا الكاتب بإحدى قرى نوميديـا في النصف الثاني من القـرن الثالث الميلادي. فدرس علم الكلام إلى أن صار أســتاذا في تلك المـادة، ثم تنصر وهو كهل، وألف كتابا واحدا بعنوان « ضداً على الوثنيين»

Adversus nationes أصدره ســنة ٣٠٠ ميلادية. تحامـل فيه على عبادة الأصنام، وراهن على أن الايمان بالله ضمان للفوز، كمـــا راهن من بعده أبو العلاء المعري و باسـكال،Pascal الفرنسـي. وقد أهله عمله في سـبيل عقيدته لأن يُعَد عند المسيحيين من«آباء الكنيسة» -

(Dictionnaire français- latin)

- القديس أوغوستينوس Augustinus بسانر روما، بصفته عمدة للكنيسة الرسمية:

ولـــد «أوغوســـتينوس» في قرية «تاكاســـت» بنوميديا ســـنة٣٥٤م. ومات بعنابة ســـنة ٤٣٠م، إذ كانـــت تلك المدينة محاصرة مـــن قِبَل الوندال. لم يتنصّر إلّا وفـــي عمره ٣٣عاما. كان من قبل أســـتاذا للبلاغة، فدرّس في قريته، ثم في قرطاجة، وروما وميلانو.

وبعد اعتناقه المســــيحية رُقّي الدرجات الكنسية في ظرف تسع سنوات فقط، فأصبح أسـقفاً سـنة ٣٩٦م، وكرس حياته لتنظيم الكنيســـــة الأفريقية وللتأليــف الديني. وقد ترك للمســيحيين مؤلفــات لاتزال حتى اليوم مرجعا لهم، يعتبرونها قاعدة صلدة لفلسفة أقانيمهم الثلاثة، منها «مدينة الله،La Cité de Dieu و«اعترافات التوبة» Les Confessions

و «المراسلات،LesL ettres» كان تبشــــيره تبشيرا رســـميا يسير في خط كنيسة روما القيصرية. ولذا عارضه «الدوناتيون» وعلى رأســـهم سَمِيَّهُ «أوغوســـتينوس الدوناتي» الـــذي عرِض على القضـــاء في أوائل القرن الخامس الميلادي (Prosopographie,102) .

لقد كان « القديس» أغوستينوس يتعاطف مع «الأفارقة»،

أي مع الأمازيغيـين ويدافع عن هويتهـم (L'Afrique du Nord،349) ولكـن فـي نطاق العمل التبشـيري الرسـمي. ومما يلفت النظـر أنه هو المؤلـف «الأفريقي اللاتيني» الوحيـد الذي ضبط تاريـخ ولادته، كمـا ضبط تاريخ وفاته. والسـبب في نظرنا هو أن أحـد أبويـه كان رومانيـا، كما هو معلـوم. وليس من المســتبعد أن تكــون «هُجنتــه» هــي ســبب موالاتــه للســلطة الرومانية السياسية الدينية.

د- الإنتاج الفكري الأمازيغي رافد الثقافة الإسلامية:

لـــم يندمج قط الأمازيغيـــون اندماجا كليا فـــي إطار حضارة معينة كما اندمجوا في إطار الحضـارة الاسـلامية، وذلك لأسـباب لا مجال لشـرحها في هذه العجالة.

ويمكن القول بأن ذلك الاندماج الكلي تم بصـــفة نهائية في أوائل العهد الموحدي، لما اندثرت البقايا الأخيرة من دولة البرغواطيين، أي بعد عهد الفتوحات الإســـلامية الأولى بخمســـة قرون على وجه التقريب. وقد كان اندماجهم، في جملته، نتيجة لعلمهم الذاتي، بتعاون مع أفراد أو جماعات قليلة من المشارقة الذين قدموا أفريقية الشمالية مسالمين، خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين. فبعدما حملت جنودهم راية الاسلام إلى قلب أوربا الغربية، وبعدما تخلصوا من الســـــيطرة السياسية المشرقية، اتجهت أنظارهم إلى أنفسهم أولا، ثم إلى غربي أفريقية الســـــوداء، ابتداء من عهد المرابطين.

فعلى أيديهم أسلمت القبائل الأولى من الزنوج في وادي السينغال، حيث لاتزال الصلوات الخمس تسمى إلى اليوم باسمائها«البربرية» ولكن، ليـــس المقصود هنا هـو الاحاطة بتاريخ «البربر» بعد دخولهـم فـي الاسلام، ولا الاحاطـة بإسـهاماتهم فـي بلورة الثقافة الاسـلامية، لأن ثلاثة عشـر قرنا من التفاني في خدمة الديـن الحنيف، فكريـا وأدبيا، لايمكـن أن تقتضب في ســـــطور أو فقرات. ولكن المقصـود هو استـشـفاف نوعية الاسـهام الأمازيغي من خلال مؤلفات مَن تُرجِمَ لهم في غير لبس بأنهم «بربر» ومـــن هـــذه الزاوية تكـــون الملاحظـــة الأولى التي يســـجلها التحليـــل هـــي أن الأمازيغيين نشـطوا حركات التصـوف. فكأن نزعة التأملات الاسـتبطانية متأصلة في نفوسهم منذ القدم،

كما لوحظ في مؤلفات «تارنتيوس» و «أبولاي» في عهد الوثنية الأولى،ثم في مؤلفات «أرنوبي» و «تارتولي» المسيحيين (Les Grands Ecrivains...)

ونكتفي من العهد الاسلامي بذكر آثار أبي الحسن الشاذلي الغماري (ت 1258/656) صاحب «مجموعة الأحزاب» الذائع الصيت في العالم الاسلامي كله (مع التذكير بأن المتنبئين حاميم وعاصم بن جميل وأبي الطواجن ينتمون إلى قبيلة غمارة بالذات فمريدالشاذلية أبي عبد الله الجزولي (ت 1465/870) الذي ترك للمغاربة مصنّفه المشهور في الصلوات على النبي «دليل الخيرات» لقد اثر الشاذلي والجزولي تأثيرا كبيرا في الفكر الصوفي الاسلامي. ولا يخفى على المؤرخين دور الصوفيين الأمازيغيين الآخرين الذين لا يمكن حصر عددهم هنا.

إلّا أننا نرى من الضروري تخصيص ثلاثة منهم بالذكر لما لهم من شهرة في الأوساط الشعبية، ألا وهم ابو العباس بن العريف الصنهاجي، دفين مراكش (1088/841 -1141/536) وأبو شعيب الدكالي، دفين أزمور، وابو يعزى، دفين الأطلس المتوسط .

وبعد الصوفية، يسترعي الانتباه الفقهاء الأمازيغيو الأصل، من حيث عددهم، سواء عند المالكية أو عند الخوارج الاباضية.

فلنكتفِ بذكر فقهاء المالكية الأمازيغيين البارزين، أمثال وجاج، وعبد الله بن ياسين، ومحمد بن تومرت، وابن أبي زيد القيرواني النفزاوي (922/310 - 996/386 صاحب الرسالة المشهورة، والامام المكودي، وابن عرفة الورغمي (1316/716- 1401/803) وابن مرزوق العجيسي (1311/711- 781 /1379) وأبي العباس أحمد البرنوصي المعروف باسم «زرّوق» (ت ٨٩٩ هـ) وأبي العباس أحمد الونشريسي (ت 1508/914) وأحمد بابا الصنهاجي (1556/963١٦٢٧ - 1627/1036) .

وبعـــد الفقه يلاحـــظ أن الأمازيغيين ألّفوا فـــي النحو العربي وأجادوا التأليف. فتح لهم هذا المجال شيخ النحاة المغاربة عيسى بن عبـــد العزيز يَلَلْبخـــت الجزولـــي (ت 1210/607) تلميذ ابن بري ومؤلـــف «المقدمة الجزوليـة» و «الأمالي» وتبعـه تلميذه هو، أبو الحسـن بن معطي الـزواوي (1169/564- ـ1231/628) صاحب «الـــدرة الألفية في علم العربية» التي اسـتنَّ ابن مالك فيما بعد طريقتهـا التعليميـة في إنشـاء ألفيتـه. وفي إثـر الجزولي وابن معطي برز أبو حيـان الغرنـاطي البربري (1256/654 - 1344/745) شـــارح ألفية ابن مالك المشهور بمقارناته بين اللغات، وبرز أبو عبد الله بن أجـــروم الصنهاجي (ت 1323/723) فطارت شـــهرته إلى الآفاق الاسلامية كلها بفضل مصنفه التعليمي «الأجرومية» الذي أعتُمِد في تدريس النحو العربي طوال ستة قرون.

يُستَخلص من هذا الاستعراض أن «البربر»أسهموا بقسط وافر في بلورة العلوم الاسلامية المتصلة بالدين مباشرة، شأنهم في ذلك شـــأن باقي الشـــعوب الاســلامية، لأنهـــم كانوا كثيري الحـــرص على صيانة العقيدة واســـتنباط ما في الأصول من قيم روحيـــة وأحكام شـــرعية. يؤكد هذا القول سبق عدد منهم إلى رواية الحديث: نعني عكرمة البربري (١٠٥/٢٤هـ) الذي كان يُرمى بإضمـــار انتمائه إلى مذهـــب الخوارج، ومن نهج نهجه كسابق، وميمون، ومحمد بن موسى (القاموس المحيط: برّ).

لم يتميز «البربر» في شيء اذن عن سائر الشعوب الاسلامية في العمل من أجل خدمة الدين أولا وأخيرا،إلّا أن الفاحص لما أنتجوه في النحو يجعلهم هم المتخصصين فيما يمكن أن نسميه بيداكوجية اللغة العربية،

إذ هم الذين أرسوا قواعدها بعدما كان الفرس قد أرسوا قواعد لاخراج فقه اللغة العربية إلى الوجود. ولا غرابة في ذلك لأن الفرس و«البربر» معا لم يكونوا يتكلمون العربية
بالسليقة... ثم يرى الفاحص لانتاج الأمازيغيين أنهم كتبوا في التاريخ وأغزروا، خاصة في تاريخ المغرب. من مشاهير مؤرخيهم أبوبكر بن علي الصنهاجي البيذق (القرن الخامس الهجري)، وابن عذاري، والجزنائي، وابن غازي الكتامي، والفشتالي، والافراني، والزياني (بتفخيم الزاي وتخفيف الياء)، وأكنسوس، وغيرهم ممن صرحوا ببربريتهم، أو من يرى النقاد المشارقة في عملهم «نزعة بربرية» كابن خلدون. وممن وُفِّقوا من الأمازيغيين في تدوين الرحلات نخص بالذكر ابن بطوطة اللواتي وأبا عبد الله العبدري الحيحي، وعبد الله ابا سالم العياشي...
لكن إسهام «البربر» في قرض الشعر - العربي - وفي الأدب الإنشائي بصفة عامة لم يكن ذا وزن كبير بالقياس إلى إنتاج المشارقة، وحتى بالقياس إلى إنتاج العرب الأندلسيين، لا من حيث الحجم والكم، ولا من حيث الجودة والكيف بصورة أخص.
ونرى السبب في ذلك هو أن جماهير الأمازيغيين كانوا لايعرفون اللغة العربية، وأن من قُدِّر لهم أن يتعلموها كانوا في أغلبيتهم لا ينشؤون على الحديث بها عن سليقة، بل كانوا يجنحون في حياتهم اليومية العادية إلى التخاطب باللغة التي رضعوها مع اللبن، وهي الأمازيغية، ولذا برعوا في صناعة الكتابة مادام عملهم يهدف إلى التحليل والاستدلال والاستنباط، كما هو الشأن في الفقه والنحو والتأملات الصوفية الفلسفية،

أو إلى الوصف والســرد، كما هو الشــأن في الرحلــة والتاريخ. ولم يأتــوا بطريف فيما هو إنشـاء صرف، لا فـي النثر الفني ولا في الشـعر. (بناءً على هذا الاعتبار، لا يســتبعد أن يكون ابن منظور، صاحب «لســان العرب» أمازيغي الأصل، كما تشـير إلى ذلك نسبته: الافريقي). وكل من تألق نجمهم شيئا ما في سماءالشــعر العربي، من «البربر» قد نشــأوا في بيئــة لغوية عربية أو قديمة العهد بالاســتعراب، كســابق البربري المشــرقي النشــأة، وابــن الزقــاق البولوكيني الأندلســي المولد والموطــن، ومدغيس الزاجل، والامام البوصيري المصري المولد والنشــئة...أما الأغلبية مــن الأمازيغيــين الذين تعاطــوا القريض وهم منغمســون في مجتمعهــم «المغاربي» المطبوع بالبربــــرة، فلم يفعلوا عن فيض خاطر، ولكن عن إرادة و«سبق إصرار» ذلك شــأن كثير منهم، حتى كبار الفقهاء والكتاب المفكرين أمثال أبي علي الحســـن اليوسي ومحمد المختار السوسي . ولذا يمكن القول إن «النبوغ المغربي في الأدب العربي» انحصر طــوال العصور في ما هو «انتفاعي» ولم يتجلَ بوضوح لا في شعر رفيع ولا في نثر فني من الطراز الأعلى.
والسـبب في ذلك هو بطء حركة الاسـتعراب«الجماهيري»كما سنبين .

استعراب الأمازيغيين

النسبي؛ عوامله ومراحله، وأسباب بطئه.

إن كان جيل من الفرس المسلمين نبغوا في الأدب الإنشائي بشقيه الشعري والنثري، نبوغا ظاهرا، فلأنهم نشأوا في عواصم البلاغة العربية بالعراق وخالطوا فصحاء العرب وقتئذ كانت العربية لا تزال متشبثة بمقومات فصاحتها الأولى، حيث كان الفتى منهم ينشأ عربي اللسان والجوارح معا، منذ نعومة أظفاره. وذلك ما لم يعرفه «البربر» لا في المغرب حيث كان العرب أقلية قليلة، ولا في الأندلس حيث لم يتيسر التآلف بين الشعوب التي تألف منها المجتمع الاسلامي. فبقدر ما كان اندماج الفرس في الوسط العربي سريعا بعد انهزامهم في القادسية، بقدر ما كان احتكاك الأمازيغيين بالعرب الوافدين على «جزيرة المغرب» احتكاكا شاقا عسيرا على الطرفين كليهما. فبينما كان الفرس يعيشون في أحضان الثقافة العربية النائشة خلال القرن الأول الهجري، كانت المعارك والمناوشات متتابعة بين جيوش الولاة الأمويين وبين القبائل الأمازيغية. وبينما كانت الدعوة العباسية قائمة في خراسان يتعامل فيها العرب والفرس معاملة ود وتآزر، كان الغليان يسود بلاد المغرب بسبب تعسفات العمال الأمويين.

ولما اســـتولى العباسيون على الخلافة بمســـاندة قوية من الفرس، كان المغرب قد اســتقل سياسيا عن المشرق، فكان من الطبيعي أن يســـتمر الأمازيغيون على حالهم في التخاطب بينهم باللغة الأمازيغيـــــة. فطرأ على العقيدة الجديدة في نفوســـــهم. ما طرأ مـــن الانحرافات الطفيفة أو الخطيرة، وســجل التاريخ من ذلك ما سجله، في شأن البرغواطيين وغمارة خاصة. تلك الانحرافات من وجهة نظر المسلم تعتبر نوعا من الردة، لكنها من وجهة نظر السوسيولوجية التاريخيـة تعتبر ردود فعل ثقافيـة صادرة عن غريزة الحفاظ على الكيان الذاتي. ذلك هو مدلول إقامة الشــعائر الدينيــة بالأمازيغية عند برغواطة وعنــد الغماريين. ولهذا يمكن أن نقول إن حركة الاســتعراب لم تنطلق بمجرد دخول «البربر» في الاسـلام، ولكنها انطلقت فيما بعد كما سنوضح.

ولهذا يصعب التســـليم بأن طارق بـــن زياد خطب في جنـــده بالعربية، ففهموا عنه بدون وســـاطة. إننا نُرجـــح أن يكون إما خطب فيهم بالعربية وترجم عنه، وإما خطب فيهـــم بالأمازيغية ونقلت خطبته فيما بعـــد إلى العربية مع مـا يتحمل ذلك من الزيـادة أو النقصان أو التبديـل. فإن كان من غير الممكـــن أن يكون طارق جاهلا للعربية، نظرا لقـــدم عهده بها في لزومه لمولاه موســى بن نصير، فليس من المحتمل ولا من الممكن أن يكون جنده «البربر» الاثنا عشر ألفا يملكون ـ كلهم أو جلهم ـ ناصية لغة الضاد بحيث يفهمون ما يقـول. ومما يجعلنا نميـل إلى الاعتقاد بأن تلك الخطبة المشــهورة أُلقيـت أصـلا بالأمازيغية، كونها أثارت في نفـوس أولئك الجند «البربر» حماسة للقتال، حسب ما تفيده الروايات .

إن مــن المؤكد في ضوء ماجريــات التاريخ من عهد عقبة بن نافع إلى قدوم المولى إدريس جبل زرهون، أن حركة الاســـتعراب لم تكـــن ذات مفعول يذكر، وأنها لم تنطلق في بطء بطيء إلّا بعد توليـة قبائل «أوربا» (لا أوربة كما يكتبـه المؤرخون العرب) إدريس الأول سـلطانا عليها. وسـتكون مسيرة الاســـــتعراب في المغرب الكبير عامة، وفي المغرب الأقصى خاصة، مسيرة طويلة، بما أنها لم تبلغ مداها ونحن في القرن الخامس عشـــر الهجري، تمٌ منها ما تمّ في مراحل أربع، تميزت أولاها وثانيتها بالبطء والتلقائية، وتميزت ثالثتها بالتســـارع الاضطراري، بينما تميـــزت رابعتها وهي الحالية بالتسارع المتزايد المثير لنوع من التمنع.

١ - المرحلة الأولى في مسيرة الاستعراب.

استغرقت هذه المرحلة عهد الأدارسة وعهد المرابطين والعقود الأولى من عهد الموحدين. في هـــذه الحقبة الممتدة من قـــدوم إدريس وليلى إلى وفاة عبد المومن بن علي الموحدي، على وجه التقريب، كانت العربية محصورة فـي مجال حضري ضيق تقاسـمها إياه الأمازيغية. كانت السـيادة للعربيـة في أحاديث الأسر الادريسية والأندلسية والقيراونية التي استوطنت مدينة فــاس، مع ترجيح الاحتمال أن أفراد تلك الأســر، لاســيما الذكور، كانــوا يضطرون إلى تعلم الأمازيغية بصفتها لغة الســواد من الســكان. وكانت لها الســـــــيادة بطبيعة الحال في المســاجد، حيث كانت تقام بها الصلوات الخمس ويتلى القرآن في حلقات الترتيل. وكانـــت لها الســـيادة في مـــا كان يُكتب، على قلتـه آنذاك. هذا في فـاس وربما فـي وليلي وبدرجة أقـل بكثير في المدن القلائل الأخرى الموجودة في أقصى شمالي المغرب في ذلك العهد.

أما في البوادي حيث كانت تقطن الأغلبية الساحقة من السكان، لاسيما النائية منها، فلم تكن للعربية إلّا أصداء ضعيفة تحملها معها الدعوة الاسلامية المجددة، خاصة أن تلك الدعوة نفسها ما كان يمكنها الاعتماد بالأولوية إلّا على الأمازيغية. ومن الصعب جدا أن يُعلم مثلا أكانت خطب الجمعة، في عهد الأدارسة ومن جاء بعدهم قبل الموحدين، تلقى بالعربية وحدها في معظم المساجد، أم كانت تلقى بالأمازيغية أم بهما معا؟

يسمح بهذا السؤال كون الأذان لإعلان الصلاة يلقى بـ «البربرية» في أوائل عهد الموحدين وكون الخليفة عبد المومن بن علي يحرر رسالاته الدينية ويخطب في الناس أيام الجُمع بالأمازيغية، وكون البلاط الموحدي يعتمد الأمازيغية لغة للتخاطب في المجالس (المسند الصحيح في مآثر... ٣٤٣ ،٣٤٤) ولايعزب عن الأذهان أن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين نفسه، على تقواه وورعه، لم يكن يتكلم إلّا بالأمازيغية، ولم تكن استهانته لمدح الشعراء الأندلسيين صادرة إلّا عن أمرين، أولهما جهله للعربية، وثانيهما أن من تقاليد الأمازيغيين أنهم لايتقبلون المدح إلّا على مضض، لاسيما المدح الحضوري .

فبما أن التمدن كان بطيئا، وأن سكان البلاد كانوا في معظمهم رُحَّلا أو أشباه رحل يتنقلون بين الجبال والسهول وبين الواحات والنجود والصحاري، فقد ظلت المناطق المغربية، في هذه المرحلة، خارجة عن مجال النفوذالفعال للغة العربية، إلّا منطقة واحدة، هي التي كانت صلة وصل بين قطبي الإشعاع للثقافة العربية،

أي بين فاس والأندلس، هـي المنطقة المعروفة اليوم باسـم «جبالة» كانت القبائـل القاطنة بتلك الجهة قارة السـكن منذ قرون، ولذا يمكن الجزم بأنها أخذت تسـتعرب، ببطء ولكن باستمرار، على حافتَي الطريق الرابطة بين فـاس والأنـدلس، انطلاقـا من العهـد الـذي تمتنـت فيـه العلاقـات بين العدوتين، أي من أواخر القرن العاشـــر الميلادي الموافقة لأواخر القرن الرابع الهجري، وسـنعود فيما بعد إلى نتيجة استعراب «جبالة» كما نشاهدها اليوم.

٢ - استعراب المغرب في مرحلته الثانية.

دشن هذه المرحلة، عن غير قصد، عبد المومن الموحدي باستقدامه إلى المغرب (الأقصى) القبائل العربيـة التي كان الفاطميـون مـن قبل قـد أباحوا لها غـزو إفريقيـا انطلاقا من الصعيد المصري. فلما أخذت تلك القبائل تجوب الأنجاد في المغرب الشـرقي والحواشـي الصحراوية للأطلسين الكبير والصغير، شـد وجودها أزر اللغة العربية، لاسيما أنها أخذت تتسرب شيئا فشـيئاً إلى السهول الأطلنتية وإلى بعض الممرات الفاصلة بين الكتـل الأمازيغية الكبرى التي يُتواكل في الدفاع عنها بين تلك الكتل. (les Arabes en Berbérie)

إذّاك أخذت المناطق السهلية الشـاطئية تستعرب، قي بطء من دون شك ولكن باطراد، خاصة أن قبائـل «تامسـنا» الأمازيغيـة كان المرابطـون والموحـدون قد كسروا شوكتها بقوة، وجعلوها فلولا غير متماسكة، فتقلصت في تلك النواحي رقعة التخاطب بالأمازيغية، وأخذت تنحصر في جزر لغوية مثل ما عرف عن «صنهاجة الذل» فيما حول تيط

(مولاي عبد الله أمغار حاليـا) و«مازيغن» (وهي الجديدة الحالية) وأزمـور. ثم امحــت، وهكذا اســتعربت مناطق دكالة والشــاوية (أي تامســنا)، و «أزاغار» وهـــو «الغرب» ومما يشــهد على تداخل الفصائــل العربية مع الفصائل «البربرية» في دكالة والشـــاوية خاصـــة هو تداخل الألفـــاظ والتراكيب والتعابيـــر الأمازيغية في اللهجـــات المحلية. وبتنقل «الجيش» المخزنــي من منطقة إلى أخرى اســتوطنت قبائل عربية جزءا من المناطق السهلية الأخرى، عند ســفوح الجبال والممرات قرب العاصمتين الكبريين فاس ومراكش، وتوغلت قبائـــل أخرى في الصحـــراء المغربية الغربيـــة وموريتانيا واختلطـت هناك ببقايا « زناكـة» (صنهاجة اللمتونيين). وهكذا تضافرت العوامل السياسـية والاقتصادية والاجتماعية طوال عدة قرون لرســـم الخريطة اللغوية التي وجـــد عليها المغرب عند وقوعه في قبضة الاســـتعمار الأوربي الفرنسي والاسباني، وهي خريطـــة تغيـــرت معالمها في مناطق معينة، بـين عهد الموحدين ومطلـع القرن العشـرين، كما بينا. لكن حركة الاســتعراب في المناطـق الاخـرى ظلت بطيئة كمـا كانت من قبـل، خاصة في الجبـال والواحات، ســواء في المغــرب أو الجزائـر، وبالأحرى في قلب الصحـــراء حيث انعزلت قبائل التوارك. أمـــا في المدن، فإن حركة الاستعراب تسارعت ابتداء من عهد المرينيين، في فاس بالخصوص، لمـــا تضافــرت عوامل ثلاثــة على تنشــيطها: سياســة المرينيين التعليميــة، ثم هجرة المســـلمين من الأندلس إلى مدن شـــمالي البلاد، ثم تولي الشـــرفاء مقاليد الملك، مع العلم بأن السلاطين الشـــرفاء أنفســـهم كانوا إلى عهد قريب يعرفون لهجة «بربرية» أو أخرى.

كان محمد بن عبد الله العلوي «يكلم البربر في لسانهم» (الاستقصاء نقلا عن الزياني) وكذلك الحسن الأول، حسب ما سمعناه من شيوخ قبائل الأطلس المتوسط الذين نشأوا في أواخر عهده، ومن المستبعد أن يكون أعوان المخزن لا يقتدون بالسلاطين في الحرص على تعلم «البربرية»، خاصة منهم عمال الأقاليم وقواد الجيش.

٣ـ المرحلة الثالثة: الاستعراب وسيلة ثقافية لمقاومة الاستعمار الأوربي الاستيطاني.

لما سلطت على المغرب جيوش الاحتلال في مطلع هذا القرن الميلادي، كان رد الفعل الأول هو المقاومة بالسلاح على المستوى الشعبي، فانتقلت المعارك بسرعة من السهول إلى الجبال، واستمرت هناك المشادّات الحربية بين القبائل ـ الناطقة كلها بالأمازيغية ـ وبين الفرنسيين والاسبان ما لا يقل عن ربع قرن. فخرجت القبائل المقاومة من المعمعة، سواء في الريف أو في الأطالس الثلاثة، منهوكة القوى بشريا واقتصاديا. فضعفت من جراء ذلك المكانة الاجتماعية والسياسية التي كانت لها من قبل. وفي أثناء تلك الحقبة بالذات (١٩١٢- ١٩٣٧) ظهرت في المدن البوادر الأولى لقيام حركة وطنية مغربية ترمي إلى تنظيم مقاومة سياسية، بتعبئة المشاعر الدينية على أسس جديدة، كان قد وضعها في المشرق جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده لتجديد الفكر الاسلامي، خلال القرن التاسع عشر. وتبلورت في الأذهان الخطوط العريضة لاستراتيجية المقاومة «السياسية الدينية» سنة ١٩٣٠ عندما استصدر الفرنسيون ما

أسموه بـ «الظهير البربري» في نطاق عملهم الاستعماري المرتكز على مبدأ «فرّق تَسُد» فتطلع الوطنيون إلى معرفة الفكر السلفي المجدد، واشرأبت أعناقهم إلى المشرق من أجل استيراده، وأسسوا «المدارس الحرة» سعيا لنشر تعاليمه في أوساط الشباب، وأُصلحت برامج جامعة القرويين. فنشطت بذلك الثقافة العربية الإسلامية نشاطا كبيرا، وساعد على انتشار مضامينها ظهور الصحف المناهضة للظلم الاستعماري. فاهتم المغاربة بالدعوة الاستقلالية، كل على قدر ما يستطيع حسب موقعه الاجتماعي والاقتصادي والجغرافي. وقويت رغبتهم في تعلم العربية، إذ صار الحافز الديني مدعوما بالحافز الوطني . أضف إلى ذلك أن الشباب أولعوا بالاستماع إلى الأغاني الغرامية المشرقية على أمواج الاذاعة أو من أسطوانات الفونوغراف، وأن الأناشيد المحمّسة للنضال كانت تستحوذ على مكامن الانفعالات الجماعية في المناسبات الاحتفالية. فخدم ذلك كله انتشار اللغة العربية، لاسيما أن وسائل النقل والمواصلات كانت قد تخطت عهد الدواب والخيل والابل و«الرقاص» إلى عهد الحافلة والقطار والهاتف والبريد السريع.

في هذه المرحلة بالذات ــ أي ما بين ١٩١٢ و ١٩٥٥ــ استعربت بعض المجموعات القروية المتوسطة الحجم، كقبيلة غياتة المجاورة لمدينة تازة، واستعرب عدد لابأس به من العائلات الأمازيغية التي هاجرت إلى السهول والمدن طلبا للرزق، وكثرت بعثات الطلاب

المتوجهة لمصر، من «المنطقة الاسبانية» على الخصوص. وساهمت حتى المدارس المعروفة آنذاك باسم «المدارس الفرنسية المغربية»

في تعليم اللغـة العربية لابناء الأعيـان في الحـواضر، وتخرجت مـن ثانويات «مـولاي إدريس» بفاس، و «مولاي يوسـف» بالرباط و «سـيدي محمـد» بمراكش أجيال من الطلبة، قليلة
العدد لكنها متينة التكوين في اللغتين العربية والفرنسـية. أما في «المدارس الفرنســية المغربية الحضريــة» (écoles urbaines) فكانت حصة المواد العربية لاتجاوز ســاعتين ونصفا في الأسبوع (بدلا من أربع ســاعات في مدارس أبناء الأعيان). وفي المدارس «الفرنسية المغربية القروية»
ـ التـي كان عددها ضئيلا جدا ـ كانـت حصـة المـواد العربيـة منعدمـة حيثمـا كانـت توجد تلك المدارس. (Bulletin de l'enseigment... 1920)
وفي سـنة ١٩٤٧ ارتفعت حصة المـواد العربية في جميع «المدارس الحضرية الفرنسية المغربية» إلى سبع ساعات، ثم ارتفعت إلى تسع ساعات وعشر دقائق سـنة ١٩٥٠، وتقرر في السـنة نفسـها مبـدأ إدارج المواد العربية في برامج المدارس المهنية (٠٧,١٠س) والمدارس القروية (٠٨,١٠س)
(Horaires- Programmes, Instructions 1950) أما بإعدادية أزرو
(Le Collège Berbère d'Azrou) فقـد تطـور الوضـع كمـا يلي، فيما يهم الأقســام الثانوية الأربعة: من ســنة ١٩٢٨ إلى سنة ١٩٣٥ كانت «البربرية» شــبه إجبارية، وكانــت العربية تُدرَّس من قبــل مدير الإعداية نفســه (السـيد Roux المبرز فـي الأدب العربي) خــارج الحصص العاديـة، فـي ظروف ماديــة ومعنويــة مزرية، بمعدل ســاعة في الأسبوع. ومن ســنة ١٩٣٥ إلى سـنة ١٩٤١ أدرجت ساعة اللغة العربيـة فـي الحصـص العامة الرسمية. كان مدير الإعدادية (السيد Bisson المجاز في العربية)

يلقن فيها مبادئ النحو العربي باللغة الفرنسـيـة، بالاضافة إلى مبادئ الترجمة. في هذه الفترة صارت مادة اللغة «البربرية » مادة اختيارية تلقن خارج الحصة الرسمية العامة. وفي أكتوبر ١٩٤١ ارتفعت حصة اللغة العربية إلى ثلاث ساعات في الأسبوع، و عين السيد أحمد الأخضر غزال (أستاذا للمواد العربية)، وظلت «البربرية» مادة اختيارية تدرَّس تحت إشراف «معهد الدراسات المغربية العليا» كما تدرَّس في مراكز أخرى كفاس ومراكش. وابتداء من سنة ١٩٤٩ صارت حصة المواد العربية أربع ساعات، ثم أحدثت أقسام إعداد الباكلوريا.

حرصنا أن نثبت هنا هذه المعلومات، فيما يتعلق بإعدادية أزرو، لانه كثيرا ما يقال ويكتب في الموضوع أشياء تمليها مشاعر وطنية في غير تحرٍ للحقيقة المجردة.

بينما ينبغي أن تسجل للتاريخ حقائق أخرى يُخشى أن يغمرها النسيان.

منها مثلا أن منطقة الأطالس الثلاثة ظلت خاضعة، طيلة عهد «الحماية»، للحكم العسكري الفرنسي، لا يُتَجوَّل فيها إلّا بإذن، وسكانها مجبرون على تأدية التحية العسكرية للضباط الفرنسيين، مفروض على كل ذكر بالغ منهم أن يقوم بالخدمة الاجبارية في الاوراش لمدة أربعة ايام من كل سنة؛ ونزلاء سجونها ملزمون بإنجاز جميع الأعمال الشاقة التي تخطر ببال الحاكم، يُصفد منهم في الحديد كل من سَوَّلت له نفسه أن يحتج أو يتذمّر، ويُساق دامي الرسغين، وهو يرسف في قيوده، إلى مقالع الأحجار وما شاكلها من أماكن الكد والكدح

٤ - الاستعراب يتسارع ويصبح تعريبا مقصودا في نطاق إديولوجيا يكتنفها اللبس.

كان العامل الأول والأقوى في استعراب من استعرب من الأمازيغيين، خلال المرحلتين الأولى والثانية، هو صدق العقيدة الاسلامية وتقديس اللغة العربية والتعلق بالقبلة. وكان طريق الاستعراب هو ممارسة الشعائر الدينية وحفظ القرآن والاحتكاك بمن استوطن المغرب من العرب. لكن عاملا آخر ترتب على وجود العامل الأول، وهو العامل السياسي الاجتماعي . لايخفى أن الاسلام لايفصل الدين عن الدنيا. ومن نتائج ذلك أن كل ممارسة سياسية تستوجب الدعوة باسم الاسلام، وأن مشروعية الحكم والسلطان لا يمكن أن تُستمد إلّا من التقاليد الاسلامية. وبما أن التقاليد الاسلامية السنية تستوجب على المرشح للامامة (أي للحكم) أن يكون قرشيا، فقد صار من المتحتم على كل ذي طموح سياسي أن« يثبت »قرشيته. فتبارى الناس في ذلك «الاثبات» وأنبت المغرب غاباً من «الشجرات القرشية» و «شجرات» الانتماء إلى الدوحة النبوية، التي بها يوصل إلى المكانة الاجتماعية المؤهلة لمشاركة «أهل الحل والعقد» في اتخاذ القرار السياسي

(Esquisse d'histoire religieuse; Histoirepolitique du Maroc)

وهكذا تتسلسل مواقف الفرد من انقطاعه عن عشيرته الأمازيغية في مرحلة أولى، إلى تعلمه العربية وعلوم الدين، إلى اندماجه في وسط حضري أو قروي غير وسطه الأصلي، إلى إخراجه «شجرة » يعلن بها انتسابه إلى بيت الشرف النبوي، أو على الأقل إلى قبيلة قريش.

هذه الظاهرة لازمــت تاريخ المغرب ابتداء من عهد الموحدين. ولاشـــك أن بوادرها الأولى برزت للوجود في عهد الأدارســـــة، ولعل تفاقمها هو الذي حمل موسى بن أبي العافية المكناسي على اضطهاد كل من يدعي الشرف. وعلى كل حال، كانت هذه الظاهرة عاملا

من أقوى عوامل الاســتعراب، تستدرج الأمازيغي من طلب الرزق أو علوم الدين إلى التماس المكانة الاجتماعية أو السياسية، إلى التنكر لأصله .

هذان العامـــلان المتداخلان، الديني والسياســـي الاجتماعي، لايـــزال مفعولهما ساريا إلى اليوم، لاسيما في الأوساط التقليدية، وقد دعمهما، كما رأينا فيما سلف من القول، عزم

المغاربة على مقاومة الاستعمار الأوربي المسيحي خلال الحقبة الممتدة من ١٩١٢ إلى ١٩٥٥. فإلى هذا التاريـخ (١٩٥٥) كانت حركة الاســتعراب منذ انطلاقتها الأولــى في عهد إدريس الأول، وخـــلال مراحلهـــا الثلاث التـــي حددناها، حركـــــة تلقائية توجهها. إرادة الأمازيغيين أنفســــــهم، وكان الاســتعراب وسيلة ليس غير ولما جاء عهد الاســتقلال تفجرت الطاقــات المكبوتة في طلب العلوم على اختلاف أنواعها، مـــــع ترجيح كفة العلوم الدنيوية .

لأول مرة في تاريخ المغرب . على كفة العلوم الأُخروية.

فاتخذت السياســـة التعليمية شــعارات أربعة، هي : التوحيد، والتعميم، والتعريب، و«المغربة» ، وتبنت الأحزاب هذه الشــــــــعارات بتفاوت في الاقتناع بصلاحية مضامينها غير الواضحة. وفي تلك الأثناء ازداد المغرب تأثرا بالمشـــرق سياســـيا وثقافيا. فظهر للعيان شيئا فشــيئاً أن من وراء شعار التعريب ـ الهادف مبدئيا إلى إقصاء اللغة الفرنسية

من المجال الثقافي ــ غاية غير مصرح بها، هي طمــس المعالم الأمازيغية في النسـق الحضـاري المغربي، وجعل اللغة الأمازيغية منبوذة لا يُهتم بها حتى على صعيد الدراسات النظريـــة كما هو معمول به في كبريات الجامعات العالمية، وذلك في نطاق دعاية،

بل دعايات سـياســـــية يكتنفها اللبس من حيث إنها ترتكز على القيم الاسلامية تارة، وعلى إديولوجيا القومية العربية تارة أخرى، أو حتى على «القيــم الوطنيــة» إذ توهم نفســها وتوهم الجيل الصاعد أن «الظهير البربري» هـو الخـطيئـة الأولى التي ينـبغي «للبربر» أن يكـفـروا عنـهـا بالاستعراب السريع غير المشروط.

وكثيرا مـا تخلط تلك الدعايـات (المتضاربة فيما بينهـا أحيانـا) المشــاعر الدينية بمشـاعر الانتماء إلى «العرق العربي» وتحـول الرغبـات والمتمنيات إلى تعـازيم ترددها صباح مسـاء لعلها تفي بالمطلـوب، كما يتجلى ذلك في عبارتي «العروبة والاسلام»

(بتقديم الانتماء العرقي على العقيدة) و «المغرب العربي»

(بتأكيد عروبة المغرب خشــــية أن يحدث في شأنها نزاع). ولما كانت هذه الدعاية تتجاهل بنية المجتمع المغربي السوســـيولوجية، وتتناســـى تاريخ المغرب ومـــا يتضمنه من عبر لابـــد من الاعتبار بهـــا، كان من المتوقع أن يصـــــــدر رد فعل عن كل مغربي له مشــاعر أمازيغية «معقلنة» أو غير «معقلنة» فنشـــأ بالفعل تيار فكري تجســم أواخر الســبعينات وأوائل الثمـانينـات، في ظهور جمعيـات ثقـافيـة أمـازيغيـة النزعـة وقفـت منهـا الســلطات السياســية -إلى حد الآن- موقف المنع غير المعلن، ســواء في المغرب أو في الجزائر. وهكذا لا تـزال عملية «التعريب» متواصلة

يتحمس لمساندتها من يتحمس على مستوى الدولة أو على مستوى الهيئات أو مستوى الأفراد، بما يحتمله التحمس من غفلة عن الواقع، ومن التغاضي عن الحقيقة، ومن ميل إلى التزييف والتحريف، ومن تجاهل لمشاعر الناس. وهكذا أصبح الأمازيغيون لأول مرة في تاريخهم الاسلامي يشعرون بأن هناك إرادة غير إرادتهم الذاتية تدعوهم إلى الاستعراب بالحُجّة العرقية الملفوفة في لفائف الحُجّة الدينية.(١)

٥ - الوضع اللغوي بعد ثلاثة عشر قرنا من الاستعراب:

اللغة الرسمية في المغرب هي اللغة العربية. ولأمر ما نص الدستور على ذلك، لأن الدساتير عادة تُغفل هذه المسألة، باعتبار أن اختيار اللغة معبر عنه ضمنيا. ويستخلص من خطب المسؤولين، من حيث أشكالها ومحتوياتها أن المقصود بالعربية هو الفصحى، لأن ما سواها ما هو إلّا «لهجات» في هذا الاختيار أيضا تأكيد للانتماء العربي. فنتج من ذلك أن فئات من المثقفين عامة، ورجال التدريس خاصة، يتبارون على الظهور بمظهر من ذَلّل الفصحى وجعلها طوع لسانه وقلمه. ونتج من ذلك أن الخطباء المغاربة أصبحوا أشد الناس حرصا على تطبيق قواعد النحو والصرف والاعراب، حتى إن المشارقة يَعجبون لذلك، وحتى إن بعض المتفصحين يُحرجون الناس ويحرجون أنفسهم بما في مواقفهم الخطابية من تكلف. ثم إن من بين المثقفين من يميل بحكم تكوينه الأول إلى التخاطب والكتابة بالفرنسية. وكثيرا ما يُندّد بسلوكهم أنصار العربية ويعدونهم مستلَبين

أما الشرائح الاجتماعية العريضة من المغاربة فلغتها المعتادة المنطوق بها عندهم عن سليقة، فإما هي «الدارجة» أي العربية «العامية» التي لا إعراب فيها، وهي لغة مشتركة بين جميع السكان على وجه التقريب، مع ما يطرأ عليها جهويا من تغيرات في الجرس والنبرة والالفاظ؛ وإما هي الأمازيغية المنقسمة إلى ثلاث لهجات رئيسية يتميز بعضها عن بعض بالجرس والنبرة والالفاظ أيضا، والتفاوت في التأثر بالعربية. ولاسبيل في الوقت الراهن إلى إحصاء عدد المغاربة الذين لا يزالون يعرفون الأمازيغية ويتكلمونها يوميا، لأن الدوائر المسؤولة ألغت منذ الإحصاء الثاني للسكان في عهد الاستقلال، الاهتمام بإدراج «البربرية» بين اللغات التي يُحتمل في المواطنين أنهم يعرفونها؛ وإذا صرح أحدهم تلقائيا بأنه يعرفها أجيب بأنها ليست بلغة. وإنما بإمكان الباحث أن يطلع على عدد المغاربة الذين كانوا سنة ١٩٣٩ يتكلمون الأمازيغية، في منطقة النفوذ الفرنسي إذّاك، بجرد ما هو وارد في الوثيقة الادارية التي عنوانها:

(Répertoire alphabétique des confédérations)

لكن ما يهمنا أكثر هنا هو إظهار ما من تطابق بين اختلاف اللهجات العربية المغربية وبين تتابع المراحل الأربع التي مر بها الاستعراب. نجد أولا اللهجة الأقدم نشوءا، وهي لهجة «بني يازغة» (الذين عرفوا قديما باسم« إزغيتن»).

هذه القبيلة الصغيرة المنزوية على نفسها بين القبائل الناطقة بالأمازيغية في شرقي الأطلس المتوسط، لا تزال تستعمل إلى الآن، أو إلى زمن جد قريب، صيغة المثنى في ذكر اليَدين (لْيدّين) والرجلَين (رْجْلَيّن) والعينين (لْعِيْنَيّن) والأذنَين (لْوْذْنَيّن)،

ولاتزال تستعمل لفظة «لْفَا» بدلاً من «لْفُم» أي الفم، وحرف القاف منطوقا قافاً. وقبيلة بني يازغة هذه قبيلة «بربرية» الأصل كانت قاطنة في المكان الذي بُنيت عليه مدينة فاس أو في جواره. وقد كانت إلى عهد قريب تدعي أن أراضي «رأس القليعة» الواقعة قرب باب فتوح ملك خالص لها فُوّت عليها بصورة غير شرعية في عهدٍ ما. ويُلحق باللهجة اليازغية لهجة جبل زرهون، ثم لهجة قبائل «جبالة» المتعددة. هذه اللهجات لا أثر فيها لقلب القاف كافا معقودة، فيما هو لفظ عربي أصيل، بينما يحدث ذلك القلب في حرف الجيم لسبب يستحق أن يبحث عنه، لكنها لم تتخلص على قِدَم استعرابها من تراكيبها ذات الطابع الأمازيغي، ولا من إعمال القواعد الصرفية الأمازيغية وإسقاطها على التعابير العربية. من الطريف مثلا أن تسمع السقائين (الكرابة) ينادون في الأسواق «ها لْما باردين!» ، والسر هو أن الماء يُعبر عنه في الأمازيغية بجمع لا مفرد له. وبالاضافة إلى هذا تتميز تلك اللهجات بمحافظتها على الكلمات «البربرية» غير معربة الصيغة، كما هو الشأن في «أباريق» أي اللطم و «أزدم» أو «تازدمت» حُزمة الحطب، إلخ... وتتميز بجرسها ونبراتها الماثلة عند «جبالة »خاصة في ميل شبه خفي إلى الكشكشة عند النطق بالكاف. وتتمثل المرحلة الثانية من مراحل الاستعراب، أولا في اللهجات المنتشرة في السهول الأطلنتية ونجود «تادلا» والصحراء الغربية ومناطق أخرى متفرقة حدث فيها اندماج لغوي بين القبائل الأمازيغية والقبائل العربية التي استقدمها الموحدون.

لكن الاندماج لم يطمس شواهد الماضي الدالة على الانتماءات الأصلية، بحيث نجد تلك الشواهد في مُعطَيين اثنين، **أولهما** أسماء القبائل نفسها، أو أسماء البطون وأسماء الأفراد أحيانا) دكالة = دُووكال؛ مولاي عبد الله أمغار؛ أيت فلان وأيت فلان، في قبيلة زعير؛ زمور «العرب » المرتبطة عضويا بزمور «الشلح»)؛ **وثانيهما** هو المعجم اللغوي المستعمل، لما يوجد فيه من المفرادت الأمازيغية المعربة (الزكاوة؛ المزكور؛ ركل...إلخ) بتفاوت في الكثرة والقلة بين «تادلا» ودكالة والشاوية والغرب. وقد تجد قبيلة عربية لم تندمج فيها عناصر أمازيغية كثيرة، فيلفت نظرك كونها محتفظة بكثير من أساليب التعبير الخاصة بالعربية، نذكر كنموذج لها قبيلة «الحياينة» القاطنة بإقليم تاونات. ولا شك أن ما حدث في البوادي المغربية من «اندماج لغوي» قد حدث في البوادي الجزائرية والتونسية والليبية، وحدث في صعيد مصر أيضا حيث اختلطت، في عهد الفاطميين، قبائل هوارة الأمازيغية بمن سبقها إلى هناك من بقايا القبائل العربية التي هاجرت نحو الغرب. وتتمثل المرحلة الاستعرابية الثانية، ثانيا، في آثار هجرة المسلمين من الأندلس، بعد سقوط غرناطة في لهجات فاس وسلا والرباط وتيطاون وإشاون (المُحَرَّف اسمها إلى شفشاون).

لاشك أن أفواج المهاجرين حملت معها من العدوة الأخرى مفردات وأساليب تعبير أثرت في لغات المدن المشار إليها، لكنها لم تجردها من تراثها الأمازيغي المتمثل في ظواهر فونولوجية ومعجمية وتركيبية. وحسب ما تفيده المقارنة السريعة الأولى،

إن مدينة فاس هي التي حافظت أكثر على ذلك التراث. وفيما يخص مرحلتي الاستعراب الأخيرتين، الثالثة والرابعة، من حيث تأثيرهما في

تطوير خريطة المغرب اللغوية، نقول باختصار إنهما خلقتا الظروف الملائمة لتوحيد اللهجات العربية، بحيث أصبح الفاسي يتخاطب في يُسر مع الدكالي، وصار الفيلالي يتفاهم بدون عناء مع «الجبلي»؛ وخلقت نوعا من الترابط والتفاعل بين «العامية» و «الفصحى» لم يكن معهودا من قبل بفضل الاعلام و«التمدرس». لكنهما تميزتا باتجاهين ثقافيين متعارضين مصطنعين كليهما. تميزت المرحلة الثالثة (١٩٥٥-١٩١٢)
بعمل الفرنسيين من أجل إبراز الثقافة الأمازيغية الأصلية إبرازا مغرِضاً غير طبيعي (مع السعي في تفتيت تلك الثقافة نفسها)؛ لكن عمل بعض العلماء اللغويين الفرنسيين (والأوربيين عامة) المتجردين من كل نية سياسية أفاد الثقافة الأمازيغية الأصلية، وأفاد اللغة الأمازيغية خاصة، لأنه عرفها بنفسها وبإمكاناتها الذاتية، بحيث لا يمكن التغاضي عن نتائج ذلك العمل، ولا يمكن طرحه من ميزان التراث الثقافي «المغاربي». وتميزت المرحلة الرابعة، أي هذه التي بدئت سنة ١٩٥٥ولم تنته بعد، بتهميش الأمازيغية تدريجيا. فبعد أن كانت الأمازيغية لغة يُتخاطب بها في أعلى دائرة من دوائر الدولة منذ أقل من قرن، أصبح استعمالها في نظر بعض رجال القضاء ورجال الإدارة والسلطة على الأقل، محظورا حتى على من لايعرف سواها، وذلك تطبيقا لحرف القانون. وتميزت هذه المرحلة بظهور عقلية «علمية» يكاد يختص بها المؤرّخون التقليديون وتلامذتهم من الطلبة والأساتذة الجامعيين وغير الجامعيين؛

يتوخى المتسمون بتلك العقلية طمس المعالم الأمازيغية في الشخصية المغربية، ومصادرة ما تمكن مصادرته من إيجابيات التاريخ لفائدة غير

الأمازيغيين، وترك سلبيات الماضي «للبربر». فنشأوا في هذه العقلية جيل الاستقلال وبالغوا أحيانا إلى أن أملوا، لكنهم صاروا مدرسة لمن فيه استعداد من المسؤولين الكبار، حتى إن أحد هؤلاء منع على مكاتب الحالة المدنية مثلا تسجيل أسماء المواليد كلما ظهر أنها أسماء «بربرية» الأصل كـ «إيدر» و «إيزا» و «تودا» هذا بينما يُغَض الطرف عن التجاوزات المخلّة بروح الدستور وحرفه، كأن يُكتب أو يُقال في النصوص والخطب الرسمية والشبيهة بالرسمية «المغرب العربي» بدلا من «المغرب الكبير» و «اللغة القومية» أو «اللغة الوطنية» بدلا من «اللغة الرسمية «بخصوص اللغة العربية، مع أن أسباب النزول في اختيار كل من العبارتين «المغرب الكبير» و «اللغة الرسمية» معروفة عند أهل الحل والعقد.

والخلاصة من كل هذا أن مسيرة الاستعراب في المغرب كانت جد بطيئة طيلة اثني عشر قرناً ونيّف، وأنها تسارعت شيئاً ما في النصف الأول من القرن العشرين بحكم ضرورة التعبئة باسم الدين من أجل مقاومة الاستعمار الأوربي، ثم تغيرت ظروفها الاجتماعية والسياسية في عهد الاستقلال.

ولقد كان لبطئها سببان، **أحدهما** تاريخي، هو انفصال المغرب عن المشرق إثر معركة بكدورة، **وثانيهما** جغرافي، وهو ضعف العمران و«التمدن»

فلو كان «البربر» متجمعي السكن لتحقق أحد الاحتمالين: إما أن يُنَمّوا ثقافتهم الذاتية ولغتهم بدافع الشعور القومي، وإما أن يستعربوا بسرعة كما استعرب المصريّون في وادي النيل. وإذا لم يُحقق لا هذا ولا ذاك،

كان عامل اســـتعرابهم النســـبي البطيء هو الدين ومـــا يتبع الدين من نواميس السياســـة. إن العقيدة الاســـلامية هي التي عرَّبت مَن تَعرَّب من الأمازيغيين، كما أن العقيدة المســـــيحية هي التي«لتـــنت» من تَلتـــن من الشعوب الأوربية .

خصوصيات الأمازيغيين ومميزاتهم

هل للأمازيغيين خصوصيات بصفتهم "برابرا" ليس غير؟

لقد ذهب كثير من المؤلفين في تاريخ أفريقية الشمالية، والأوربيون خاصة منهم، إلى أن الأمازيغيين كانوا دائما، ولايزالون يميلون إلى الفوضى، وبالتالي إلى التخلص من قبضة كل سلطان يريد تنظيم أمورهم. فنتج من ذلك تتابع الثورات والفتن، بغير انقطاع، في مواطنهم، وتعرضها المستمر للهجمات الآتية من الخارج. ويعزى ميلهم هذا في نظر أولئك المؤلفين إلى...طبيعتهم الأمازيغية التي انفردوا بها. وهذا ليس بتفسير علمي، بل هو تفسير نظري محض صادر عن حسن نية أو عن رغبة سياسية.

والواقع الملموس، الذي يلمسه كل من أتيح له أن يدرس تواريخ الأمم مقارنة من زوايا مختلفة، هو أن طبيعة أفريقية الشمالية الجغرافية هي التي كيفت في العمق المجتمع الأمازيغي وجعلت منه مجتمعا أقرب إلى البداوة منه إلى الحضارة والتمدن؛ وذلك بحكم عاملين اثنين، أولهما اختلاف المناطق خصبا وجدبا، وبرودةً ودفئاً،

وغــزارة أو قلة في المـــاء، باعتبار تتابع الفصـــول، ثم وجود «هامـــش» صحـراوي شاسـع وراء الأطالس الثلاثة، ونجـود داخلية شـبيهة بالجـرداء. وثانيهما هو اجتياح القحــط والجفاف مناطق معينـــة لمـدة معينـــة، أو مناطق متراميـــة الأطـــراف على مدى سنوات، وهو ما يسمـيه صاحب «الاستقصا» بــــ «توالي المجاعات والانتجاعـــات» (جـ٤ص٦٧) هذان العاملان هما اللذان تسـببا في اسـتمرارية نمط العيش الاستنجاعي، الذي تسـبب بدوره في اســـــتمرارية النظام القبلي في جل الأقاليم، لأن النظام القبلي هو المواتـي لحياة الحل والترحال الجماعيـين. وعلى النظام القبلي ترتب ما ترتب مـــن الخصوصيات في التقاليـــد الاجتماعية، التي تؤثر بدورها في طباع الأفراد، من تلك الخصوصيات مثلا الميل إلى التقشـــف ورفض حياة البـذخ والتنعم. ومن تلـك الخصوصيات الحرص على إقرار مبدأ المسـاواة بين أفراد العشـيرة وبين العشائر فـي نطاق الكيان القبلي، وعلى إقامـــة أعراف يُتَعارف عليها في التســـاكن والتعايش والتعامل في ســياق الانتجاع المستمر، ثم على مراعاة العصبيات التـــي هي ضمان القدرة على الدفاع عن المصالح المشـتركة في حدود آفاق القبيلـة المكانية والزمنية، أو على أحســـن تقدير، في حــــدود آفاق حلف من القبائـــل المتجاورة.

ومـن هـذا كله يحصل تـوازن اجتماعي نسـبي وغير قـار يكون فـي أغلب الحالات هو الحائل دون قيام نظام سياسـي قوي، مركز في المكان، طويل البقـــاء في الزمان. وفي ضوء هــــذه الاعتبارات يُبحث عن أســـس الديموقراطية المحلية «البربرية»، وعن سـر قدرة الأمازيغيين على مواجهة القوى الأجنبية بعدم الاستسلام لها

حتى عند توالي انتصاراتها الحربية أو السياسية. وفي ضوء هذه الاعتبارات يُدرك السبب الذي من أجله كان «البربر» في العهد الاسلامي يرغبون عن اتخاذ الحَكَم من ذويهم وبني جلدتهم، ومن أجله كان كل ذي طموح سياسي منهم يتنكر لانتمائه القبلي
(Histoire politique du Maroc) ولانتمائه الأمازيغي الديموقراطية المحلية كانت قائمة على مبدأ المساواة بين أفراد العشيرة وبين العشائر التي تجمعها قرابة الدم، ثم بين بطون القبيلة الواحدة أو بين القبائل المتجاورة، ولكن مع مراعاة توازن القوى. لا ينتدب لتمثيل الجماعة في دواليب هذا الحكم الديموقراطي نواب يُعيّنهم الاقتراع، ولكن يُنتَدب له الشيوخ الذين ترشحهم مكانتهم الاجتماعية وقدراتهم.

كان رؤساء العشائر يتهربون من تحمل المسؤوليات نظرا لما يتبعها من التكاليف التي لا يجزى عليها بأي تعويض. ولذا كانت مجالس الشورى تحار لا في الفصل بين مرشحين للمناصب بانتخاب أحدهم، ولكن في إيجاد من يقبل تحمل المسؤولية. وكان المجلس يضطر أحيانا إلى اختيار عضو غائب عن قصد أو عن غير قصد، فيأتيه في بيته للالحاح عليه كي يقبل منصبا ما.

كانت المناصب الرئيسية، عند قبائل الرُحَّل وأنصاف الرُحَّل هي الآتية: القيادة في الحرب، والريادة في الاستنجاع، وعضوية مجلس القضاء. وكانت ريادة الاستنجاع تعوض عند أهل المدر بالأمانة على شؤون القرية. كان الرائد يسمى «أمغارن توكا = شيخ المرعى» والقائد «أمغارن تيريت = شيخ الاستنفار»، والعضو في مجلس القضاء «أمزارفو» أو « أنزارفو»، والقضاء الجماعي «أزرف»، والأمين على شؤون القرية «أنفلوس».

كان القائد يُعَيّن عند نشـــوب الحرب، تنتهي مهمته بإنتهاء الحرب. وكان الرائد يُعين لمدة ســـــنة، من فصل ربيع إلى فصل الربيـــــع الذي يليه. أما عضو مجلـــــس القضاء فكان يُعَيَّن لمدة غير محـــــدودة لا تنتهي عادة إلّا بوفاته أو باستقالته لعذر مقبول. كان تنظيم الانتجاع يقتضي من «شيخ المرعى» أن يكون عارفا لأماكن الكلأ في تسلسلها بين الجبال والسهول، أو النجود والبراري، ولأهمية مساحتها ونوعيتها وما هو منها ملك خاص، وما هو مشـــاع (أمردول = المرعى الشاســـع؛ ألمـــو = المرعى الخصب المخضـــر؛ أزنيكَ = البقعة فيها كلأ؛ أكدال أو أودال = المرعى المحظور).

وكان فوق هذا ينبغي لـه أن يكون ديبلوماسيا قادرا على التفاوض بنجاح مع شـــــيوخ القبائل الأخرى عند المنازعات. أما القائد «شيخ الاستنفار» فكان يُنتَخَــــب لا بالتصويت المرجِّح لرأي الأغلبية، ولكن بالتعيين المتفق عليه بالاجماع من بين الشــــجعان الذين لهم ســــوابق في إصابة الظن والاشارة بالخطة الحربية المناسبة. كان يفوَّض إليه الأمر كله يوم القتال؛ أما شـــؤون التعبئة والاستعداد فمن اختصاص مجلس الشـــورى. وكان مـــن المفروض في كل مرشـــح للعضوية في مجلس القضاء أن يكون ملمـــا بتفاصيل الأعراف والتقاليد التي تستن بها القبيلة، وملما كذلك بالشريعة الاسلامية في خطوطها العريضة، قادرا على الاجتهاد حتى يســـهم مع زملائه في حســـم القضايا التي هي من باب النوازل حسماً يُغني «فقه» الأعـــراف. ومما تجدر الاشـــارة إليـــه أن بعض القبائـــل تتفق على إنشاء مجالس مشتركة بينها تقوم مقام محاكم الاستئناف.

وأن التقاضي كان يوجب على المتقاضين استعمال تعابير معينة لإشعار المجلس الابتدائي، فـــي لباقة، بأن حكمه مرفوض، واســـتعمال تعابيـــر أخرى لإشعار مجلس الاســـتئناف بأن عليه المعول بصفته المرجع النهائي. كانت أحكام مجلس الاســـتئناف تنفذ غالبا بفضل ضغط أعيان القبيلة على المحكوم عليه. كانت المنازعات التي تعرض على مجلس القضـــاء لا تختلف في شـــيء عن المنازعات التي تشـــجر في المجتمعات الرعوية، أو في المجتمعات القروية من أجل الكلأ والماء والخصومات المتعددة الأسباب، وحراســـة البســـاتين وتحديد الحقول المزروعة. كانـت قضايا القتل العمـد من أكثر المسـائل اسـتعصاء على الحل، وكانـت تعالج بالطريقـة التي تعالج بها عند البدو الرحل في كثير من مناطق المعمور (Le prix du sang...8 à14). كان القضـــــاة يجتهدون في تقدير التعويض عن الجروح اجتهادات تختلف من قبيلة إلى أخرى ومن ســـنة إلى ســـنة باختلاف الأوضـاع الاقتصـادية. كان التعويض عن الجرح في الوجه يحدد عند «أيت عطا» مثلا بالطريقة الآتية:

يقـف أحد القضـاة أمام الجريح ـ بعد أن يكـون الجرح الذي في وجهـه قد التأم ـ ثم يسـير القهقرى رويداً رويـداً إلى أن تتعذر عليـه رؤية الندبـة، أي أثر الحـــرج، فيتوقف ويقيس أحـــد القضاة الآخرين ما بينه وبـين الجريح من عدد الخطوات، ثم يُصدر مجلس القضـــــاء حكمه بأن يعوض المجني عليه عـــن جرحه. فإن كان رجلا حُكِمَ له بأخذ ما يســـاوي عـــدد الخطى غنماً، وإن كان امرأة حكم لها أن تأخذه بقراً.

هـــذه الأوضـــاع القبلية كانت ســـائدة في المجتمـــع التقليدي الأمازيغي إلى منتصف القرن العشرين،

والغالب أنها لم تتغير كثيرا منذ العصور القديمة. ولقد كانت مصدر قوة وضعف في آن واحد. كانت مصدر قوة لأنها حالت دون قيام أي نظام فيودالي كالذي عرفته أوربا ودون قيام أي نظام طاغوتي كالذي عرفه وادي النيل لمدة ثلاثة آلاف سنة، ودون قيام أي نظام قيصري ولا كسروي.

ولذا لم يُستعبد «البربر» قط استعبادا جماعيا. وحتى إذا برزت لهم في الأفق قوة تدعي الجبروت ناوشتها القبائل بدون انقطاع أو رحلت عن منطقة نفوذها متحيّنة الفرص للانقضاض عليها وكسر شوكتها عاجلا أو آجلا. وكانت مصدر قوة نِسبيّة مكَّنت الأمازيغيين من مواجعة الهجمات الاستعمارية التي توالت على أفريقية الشمالية ابتداء من القرن الخامس قبل الميلاد. ذلك لأن حياة البداوة تمنع الشعوب من الركون إلى التنعم والاسترخاء، من جهة، ولأن المهاجمين كانوا يجدون أمامهم دائما مقاومة سريعة التنقل من ناحية إلى ناحية، غير ملتزمة بقرار رئاسة مركزية؛ فإذا استسلمت قبائل لاذت قبائل أخرى بالجبال أو بالصحراء لتنطلق منها بعد حين وتنغص على المستعمر مقامه وتجعله دائما في موقف الدفاع إلى أن تذهب ريحه مع الزمان وتبقى الأرض لأهلها. ومما لاشك فيه أن الشعور المبهم بالانتماء العرقي أو اللغوي المشترك كان يضمن مستوى أدنى من التآزر بين القبائل في مواجهتها للأجنبي الدخيل.

وكانت مصدر قوة نِسبية لأنها عاقت عمليات المثاقفة التي تلاحقت على أرض المغرب الكبير عن بلوغ مداها في أي عصر من العصور، رغم طول الزمن، فمكنت اللغة الأمازيغية من البقاء. مكنتها من البقاء في حالة متردية، لكن في حالة قابلة للانتعاش،

بينما صارت إلى خبر كان عشرات من اللغات التي عايشتها وعاصرتها في القديم، كالمصرية القديمة واللاتينية والفنيقية والغالية وغيرها .

لكن، من جهة أخرى، كانت تلك الأوضاع مصدر ضعف ملحوظ، لأنها أولاً جعلت الأمازيغيين، بصفتهم أمة، في مواقف الدفاع عن النفس في جل حقب التاريخ، مع ما كان يتوفر لهم من القوة الحربية الكمينة في عدد قبائلهم وفي تعودهم حياة الشظف. كانوا يهاجمون في عقر دارهم، ولم يكونوا قادرين على التكتل العسكري الذي تنبع منه الرغبة في التوسع على حساب الغير. وكانت مصدر ضعف لأنها منعت قيام أي دولة مركزية يسمح لها طول بقائها بتنظيم الأمة في عمق كيانها، ولو مع مصادرة جزء مهم من الحريات، وبإنشاء حضارة مادية رفيعة متميزة. وكانت مصدر ضعف، بما أن امتناع «البربر» عن السماح لأية فصيلة منهم بالسيطرة والتعالي كان يضطرهم إلى تحكيم غيرهم في شؤونهم، إما على مستوى الدول وإما على مستوى الأفراد، إلى أن صار ذوو الطموح السياسي منهم، بسبب ذلك، ينتحلون الأنساب غير الأمازيغية كي يَستَتِبّ لهم الأمر؛ فعل ذلك ابن تومرت وعبد المومن بن علي والسلاطين المرينيون وغيرهم، كما فعله من قبلهم يوبا الثاني إذ كان يدعي ويُرسخ في أذهان الناس أنه من سلالة البطل اليوناني الأسطوري «هرقل» Hercule, Heraklês (Gsell, VIII, 237).

وكانت تلك الأوضاع مصدر ضعف، لأنها حالت بين الثقافة الأمازيغية الذاتية وبين النمو والازدهار، وأبقتها على حالتها

المناســـــبة لنمط العيش القبلي المائل إلى البداوة، فوجدت تلك الثقافة نفســها في تنافس وتبارٍ مع ثقافات أكثر نموا، وســلمت لها بالتعاقب على شغل مجالات التحضر والتمدن.

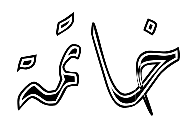
وهكـذا يمكن القـول إن «البربر» لـم يكن لهـم الاختيار بين المســار الذي ساروا فيه منذ فجر التاريخ إلى اليوم وبين مسارات أخرى، ولكن جغرافية مواطنهم الطبيعية هي التي رسمت لهم معالم ذلك المسار، بما فرضته من أســاليب الاســترزاق وما يترتـب عليها مـن ظواهر الدور والتسلسـل بـين تقاليد المجتمع وطبــاع الأفــراد في التفاعل مــع بيئة ليســت بصريحة الخصب ولا بصريحــــة الجدب، تجود حينا وتبخل حينا، تضاريســـــها متجزئة، ومناخهـــا مائل إلى الجفاف مطبوع بالمتناقضات التي من جرائها يستمر انجراف التربة، إذ لا غطاء نباتي ينظم توزيع المياه بين الانصراف والتســــرب إلى الجوف، ولا «أفق أول، premier horizon» يسمح بظهور غطاء نباتي متماسـك ذي شـأن. وما على المرء، إن هو أراد أن يلمس هذه الظواهر والمظاهر شـــــاخصة للعيان، إلّا أن يُمعن النظر في المناظر التي يمكنه أن يشــــاهدها من الطائرة، في تتابعها من وســــط أوربا إلى جنوبي المغرب، إذا ما أتيح له السـفر إلى المغرب يوم صحو من أيام الصـيف أو الخريف أو الشتاء . أمـــــا ما نبت فوق الأراضي «المغاربية» من حضارات مستوردة، فيرجع سبب ازدهاره ازدهارا نسبيا إلى كونهنُ قلة فصلت عن حضـــــارات احتضنت نشـــأتها وترعرعها أراض أخـــرى بطبائع جغرافية أخرى، ربّت شـــعوبا أخرى، إما بخصبهـــا المتواصل ووفرة أسباب التكاثر والتماسـك والتكاتل فيها، وإما بقسـاوتها الداعية إلى التطلع والتشـوف إلى سواها.

ويبقى لنا مع ذلك أن نلتفت ونلفت الأنظار إلى خصـوصـيتين أمازيغيتين، علاقة إحداهما بالبيئة ونمط العيش ظاهرة، وسـبب وجـود الأخرى غيـر واضــح. الخصوصيــة الأولى هي الجنــوح إلى التمســك بالراديكالية في الاختيار والسلوك والنظر، ومنها نتج تبنّي الدوناتية المسـيحية فـي العصر القديم، ثــم تبنى مذهب الخــوارج فــي العصــر الوســيط، والانفــراد بالمالكيـــة، وبها يمكن تفســير صرامة ابن تومرت وصرامـــة تلامذته من الموحدين الأول،

ويمكن تفسير ميل أفراد إلى الصلاحية والنسك المفرطين، وميل آخرين إلى الشعوذة والنصب والسطو والتشغيب. والخصوصية الثانيــة هــي ازدراء الاطناب في القول والفخفخة والتبجح، شأنهم في ذلك شأن الاسبارطيين القدماء (التاريخ العالمي للتربية

(l'Histoire Mondiale de l'Education, I, 142...)، وعنها صــدر موقف يوســـــف بن تاشفين إذ أمر كاتبه بأن يقتضب الجواب على الرســـــالة المطولة التي كان ملك أستوريا «ألفونسو» الســــادس قد بعث بها إليــــه م ِحذراً له قبيل يوم الزلاقة.

هذه الخصـوصـية قد تبلورت عند الأمازيغيين في م ِثل سـائر قديم يقول «المتبجح القـوّال لا يفعل، والفعّال العامل لا يقول = ونّا يتينين ورا يتكّا، ونّا يتكأن ورا يتّيني.



خاتمة

إن مـن الضروري أن نشـير في هذه الخاتمـة إلى ظاهرة لا يمكن الباحـث الجاد أن يغفل عنها حينما يستعرض مصادر التاريخ الأمازيغي، ولايجدر به أن يستنتج النتائج من المقدمات إلّا بعد وضع تلك الظاهرة في الميزان، ألا وهي انعدام وجهة النظر الأمازيغي واحتكار خصـومهم أو شـركائهم لرواية أحداث التاريخ وللتعليـق على الأحداث. إننـا لانعرف عن «بربـر» عهد قرطاجة وعهد روما وعهد «بيزانتا» إلّا ما رواه الفينيقيون واليونان والرومان أنفسهم. ولا نعرف عن «بربر» عصـور الإسلام الأولى إلّا ما رواه لنا المؤلفـون العرب. ولا نعرف عن «بربـر» العهود المتأخرة من التاريخ الحديث، بين القرن السـادس عشـر والقرن العشرين الميلاديين، إلّا ما رواه لنا أعوان السلطة المركزية أو المقربون للسلطة، ولا نعرف عن «بربر» المقاومة المسلحة التي تصدت للفرنسيين بين ١٩١٢و ١٩٣٤إلا ما رواه الفرنسـيون وكتبوه. ومما يوهمه غياب الأمازيغيين فـي كتابة التاريخ أنهم لم يحضروا في صنع التاريخ إلّا حضورا هامشيا.

ولعل هذه «المحاكمـة الغيابية» التـي حوكِموها هي سـبب إدانتهم في غير موقـف، لأن حججهم كانت معهم كما يقـول المثل العربي. ومن حقهم اليوم أن يطالبوا بالتعقيب

على ما أصدر بشأنهم من الأحكام في ضوء ما جد من أساليب النقد لـدى مَن يزاولـون بنزاهة مهنـة التنقيب عن ماضي الشعوب.

(L'histoire sous surveillance)

لقد تفطن أحد المؤلفين اللاتينيين القدماء ـ مع كونه لاتينيا - إلى بعض شطحات المؤرخ «سالوستيوس» Sallustius صاحب المرجع الأول الذي يُرجع إليه في دراسة عهد «يوكرتن»، Jugurtha وقال فيه إنه «إنسان دنيء» مجرد من كل نزاهة فكرية. (les Berbers,1,65,note 4)

فهل درست نصوص ابن عبد الحكم في «فتح المغرب» دراسة نقدية شاملة بصفتها المصدر الأول لأخبار «البربر» عند دخول العرب أفريقية الشمالية؟ وهل حاول مؤرخ ناقد أن يستنبط من المتون ما كان من الدوافع النفسية، أو السياسية، أو الاجتماعية، أو الاقتصادية، وراء التحامل على «البربر» من قبل مؤلفين عرب مشارقة وأندلسيين أمثال ابن حوقل، وابن حزم المسيحي الأصل، وياقوت الحموي الرومي النسب؟ فمما يثير الشك في أن المشارقة يستطيعون أن يعالجوا قضايا المغرب التاريخية بما يقتضيه البحث العلمي من موضوعية، أنهم يصدرون أحكاما جاهزة في مسائل كثيرة دون فحص دقيق لمعطياتها. هذا محمد رشيد رضا يرجح في كتابه «الخلافة والامامة العظمى» الرأي القائل بأن سبب توقف الجيش الاسلامي في جنوبي فرنسا راجع إلى كون أكثر الجنود «بربرا»، دون أن يفسر كيف استطاع أولئك الجنود أن يفتحوا الجزيرة الأيبيرية الشاسعة في ظرف وجيز، ودون أن يشير إلى الاستياء والتذمر الذي أثاره سلوك الولاة الأمويين في أوطان أولئك الجنود. وهذا الأستاذ الكبير حسن إبراهيم حسن، رحمه الله، يحكم تلقائيا بأن الشر في النزاع

بـــين العرب و«البربر» في الأندلس، لا يمكن أن يصـــدر إلّا عن «البربر»، وذلك عند قوله: "وما كاد شـر البربـر يزول من الأندلـس، حتى قام النـزاع بين المضرية واليمنيـــة... " (تاريخ الاســـلام، جــ ١ ص ٣٢٢) وهذا أمين الريحاني يُبدي ســروره، في أحد مؤلفاته، من كون شــيخ إســباني «يفرق بين العرب والمغاربة» أما رأي المشـارقة المحدثين في ابن خلدون فيتجاذبه الاعتزاز بكون ذلـــك المؤرخ الفذ عربياً والاســـتياء من «إدانتـــه للعرب ومحاباته للبربر» هذا المؤرخ عبد الله عنان يكتب:

"... ينتمي (ابن خلدون) في الواقع إلى ذلك الشـعب البربري الذي افتتـــح العرب بـــلاده بعد مقاومـــة عنيفة وفرضـــوا عليه دينهم ولغتهم....» وهذا فؤاد أفرام البســتاني «يفند زعم طه حسـين» أن ابن خلدون نفســه كان يشـك في نسـبه العربي. وهذا أبو خلدون سـاطع الحصري يتمحل لاثبات عروبة ابن خلدون بالادعاء أن ابـــن خلدون إنما كان يقصد بـــ «العرب» الأعراب (دراسـات عن مقدمـة ابن خلـدون)، ويتغافل عمـا جاء في المقدمة نفسـها، يُظهـر أن ابـن خلـدون كان يُميّـز جيـداً بين مفهومـي «العرب» و «الأعراب»، لأن تكوينه الديني كان يتطلب منه ذلك (المقدمة، ص ٢١٧ ،٢١٦؛ معجم الفاظ القرآن الكريم، مادة: عرب).

إن الغايـة من كل مـا تقـدم في هـذا المقال من تحليلات وملاحظات ليسـت هـــي الدعوة إلى جلـــو صفحـــات التاريخ الأمازيغـــي وإعـــادة كتابتها على حســـاب الموضوعيـــة العلمية، ولكـــن الغاية هي لفت النظر إلى أن التاريخ بصفة عامة لا يمكن أن يقال بشأنه إنه علم ما لم

يُعفَ من القيام بالدعاية لعرق أو لقومية أو لوطنية أو لاديولوجية فلسفية، وبالاحرى ما لم يلتزم بالحياد التام، وما لم يتخلص من أسلوب الأدبيات ولم يتوخ الدقة والايجاز اللذين يفرضهما تقصي الحقائق في غير لبس للحق بالباطل ولا للواقع بالأسطورة أو الخيال.

المراجع البيبليوغرافية ملاحظة:

كان القصد من كتابة هذه الفصول هو تقديم نظرة شمولية عن تاريخ الأمازيغيين، مع ما فيه من استمرارية. وبما أن من المفروض أن للقارئ العربي المسلم دراية بتاريخ «البربر» في العهود الاسلامية، لقد اقتضبت الفقرات المتعلقة بتلك العهود اقتضابا؛ بينما تُوسّع في التعريف بتاريخ أمازيغي ما قبل الاسلام. لهذا نرى أن عدد المراجع الأجنبية في هذه البيبليوغرافية أكثر بكثير من عدد المراجع العربية.

١ - المراجع العربية:

* ابن ابي زرع: روض القرطاس.

* ابن خلدون، المقدمة، المجلد الأول من تاريخ ابن خلدون، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٥٨

* ابن عبد الحكم، فتوح افريقية والاندلس، تحقيق عبد الله الطباع، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٦٤

* ابن عبد العظيم الازموري: بهجة الناظرين وأنس الحاضرين ووسيلة رب العالمين في مناقب رجال أمغار الصالحين، مخطوط، الخزانة العامة، الرباط، رقم ١٥٠١

* ابن مرزوق التلمساني، محمد: المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم محمد بوعياد، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٨١/١٤٠١ هـ

* الادريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تحقيق هانري بيريس، الجزائر، دار الكتاب، ١٩٥٧

* أمرير عمر: الشعر الأمازيغي المنسوب إلى سيدي حمو الطالب، الدار البيضاء، مطبعة التيسير، ١٩٨٧
* الجزنائي، علي: جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس.
* الصافي، مومن علي: أوس ـان صميدنين، مطبعة الأندلس، ١٩٨٣
* حسن، ابراهيم حسن: تاريخ الاسلام، الجزء ،١ط، ٧ القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٤
* ساطع الحصري: دراسات عن مقدمة ابن خلدون، ط. موسعة، القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٣
* شفيق، محمد: الشعر الأمازيغي والمقاومة المسلحة في الاطلس المتوسط وشرقي الاطلس الكبير، مجلة الاكاديمية، ١٤٠٨/١٩٨٧، ٤عدد
* عبد الرزاق، محمد اسماعيل: الخوارج في بلاد المغرب
* الدار البيضاء، دار الثقافة، ١٩٧٦
* مجمع اللغة العربية: معجم ألفاظ القرآن الكريم.
* مستاوي، محمد: ئسكراف، الدار البيضاء، دار الكتاب، ١٩٧٦
* مســتاوي، محمد: تاضــصــا د- يمطاون - الدار البيضــاء، دار الكتاب، ١٩٧٩
* الناصـــــري، أحمد بن خالد: كتاب الاســـــتقصا، الدار البيضاء، دار الكتاب، ٢، ١٩٥٤

- المصادر الأجنبية أو المكتوبة بلغة أجنبية:

-AGNOUCHE, Abdellatif - Histoire politique du Maroc, Casablanca -Afrique Orient 1987.

-AKKACHE, A - Tacfarinas - Alger, S.N.E D., 1968.

-AYMARD, André, AUBOYER, Jeannine – Histoire générale des civilisations, Paris : P.U.F., 1967 - Vol. I, II.

-BAILLY, A :

-Dictionnaire Grec-Francais, 11 ème Ed. - Paris : Hachette, 1894.

- BASSET, André - La langue berbére - Paris : E. Leroux,1929

-BASSET, André - Quelques considérations sur la langue berbère

-Revue du monde non-chrétien, n° 11, Juil.-Sept. 1949, p12

-BENABOU, Marcel, - Juba II ou l'Africanité vassale de Rome, In Les Africains, Paris: Ed. Jeune-Afrique, 1977, pp. 164-165

BENABOU, Marcel - La résistance africaine à la romanisation, Paris, Maspéro, 1976.

-BENABOU Marcel - Tacfarinas : Insurgé berbère contre la colonisation romaine, in Les Africains - Paris, Ed. Jeune-Afrique, 1977, pp. 293-313.

-BERNARD, Jean - Le sang et l'histoire - Paris, BuchetChastel, 1983.

BERTHIER, André - La Numidie, Rome et le Maghreb, Paris, Picard, 1981
-BOUCHENAKI, Mounir - Jugurtha : Un roi berbère et sa guerre contre Rome,
in Les Africains - Paris, Ed. JeuneAfrique, 1977, pp. 165-191.
-BOUKOUS, A. - Le profl sociolinguistique du Maroc, B.E.S.M, n° 140, 1979, pp 5-31. numéro spécial : Culture populaire marocaine.
-BRUNNEL, Pierre, JOUANNY, Robert: - Les grands écrivains du monde, Paris, F. Nathan, 1976.
-Bulletin de l'enseignement public au Maroc, n° 24, Octobre 1920, pp. 302-438. - CAMPS, Gabriel. - Berbères : Aux marges de l'histoire - Toulouse, Hespérides, 1980.
-CESAR, Jules -- Guerre d'Afrique / Texte établi et traduit par A. Bouvert - Paris, Les Belles Lettres, 1949.
-CHABOT, J. B. - Recueil des inscriptions libyques.-Paris, Imprimerie Nationale, 1940-1941.
-CHAFIK, Mohammed. - En ce qui concerne les noms de Masinissa et Jugurtha, in franssich Heute, Frankfurt, Juin 1984 (Spécial Maghreb)
-CHELHOD, Joseph. - L'Arabie du Sud, Paris, Maisonneuve, 1984.

-CHOTTIN, Alexis. - Tableau de la musique marocaine, Paris, Geuthner, 1939.

-COHEN, Marcel. - Pour une sociologie du langage, Paris, A. Michel 1956.

-DECRET, François, FANTAR, Mhamed. - L'Afrique du Nord dans l'antiquité, Paris, Payot, 1981.

-DRAGUE, Georges. - Esquisse d'histoire religieuse du Maroc, Paris, J. Peyronnet, 1951.

-EDON, Georges. - Dictionnaire Français-Latin, 13e Ed., Paris, Librairie Eugène Belin, 1939.

-ELISSEEFF, V., NAAUDOU, WIET, G., WOLFF.

-Histoire du développement culturel et scientifque de l'humanité, Paris, UNESCO, Vol. III.

-Encyclopédie Berbère - Aix-en-Provence : EDISUD, 1987 Volume IV.,

FERRO, Marc. - Comment on raconte l'histoire aux enfants, Paris, Payot, 1981.

-FERRO, Marc - L'hitoire sous surveillance, Paris, Calmann-Levy, 1985.

-FOUCAULD, Charles de - Dictionnaire TouaregFrançais, Paris, Imprimerie Nationale, 1951, 4Vol.

-FOURNEL, Henri. - Les Berbers, Tome 1. Paris, Imprimerie Nationale, 1879.

-GAFFIOT, Félix. - Dictionnaire Latin-Francais - Paris, Hachette 1934

-GALAND, Lionel. - Langue et Littérature BerbèresParis, C N.R S., 1979.

-GSELL, Stéphane. - Histoire ancienne de l'Afrique du Nord - Paris, Hachette, 1920 - 1928 , 8 Vol

Paris, Plon, --HANOTAUX, G. - Histoire dé la Nation Egyptienne 1935 -1940, 7 Vol. - Horaires, Programmes, instructions- Rabat, Direction de l'Instruction Publique, 1950

-JACQUES-MEUNIE, Dj. - Greniers - citadelles du Maroc. - Paris, Arts et métiers, 1951, 2 Vol.

JACQUES-MEUNIE, D. - Le prix du sang chez les Berbères de l'Atlas - Paris, Imprimerie Nationale, 1964.

-JULIEN, Charles-André. - Histoire de l'Afrique du Nord - Paris, Payot, 1986, 2 Vol. - LAOUST, E. - Cours de berbère marocain - Paris, Geuthner, 1939. - LAOUST, E.

Siwa : son parler - Paris, E. Leroux, 1931. - LEFEBVRE, - Gustave - Grammaire de l'Egyptien classique. - Le

Caire, Institut Français d'Archéologie Orientale, 1955.

--LOCQUIN, Marcel. - In Science et Vie. n° 31, juin 1980

MAMMERI, Mouloud. - Les Isefra : poémes de Si Mohand ou Mhand. - Paris, Maspéro, 1982.

-MANDOUZE, André. - Prosopographie de l'Afrique chrétienne.
Saint Augustin, -- Paris, C.N.R.S 1982. - MANDOUZE, André.
354 - 430 : Une africanité en question, in Les Africains, Paris, Ed.
Jeune-Afrique, 1978, pp. 73-103 MARCAIS, Georges. - Les
Arabes en Berbérie du 11e au 14e siècle, Paris, E. Leroux, 1913,
771 p MARCY, Georges. - Introduction à un déchiffrement
méthodique
des inscriptions tifnagh du Sahara central. - Hesperis, 1r - 2e
Les inscriptions -trim. 1937, pp. 89 - 118. - MARCY, Georges
libyques bilingues. - Paris, Imprimerie
Nationale, 1936. - MEILLET, A., VENDRYES, J. – Traité de
grammaire comparée des langues classiques - 5e Ed., Paris,
Honoré Champion, 1979. - MIALARET, Gaston. Histoire
mondiale de l'éducation - Tome 1, Paris, P.U.F.,1981
PERETI, Luigi - Histoire du développement - .
culturel et scientifque de l'humanité, Paris, UNESCO, Vol. II. -
PLINE L'ANCIEN. - Histoire naturelle, Livre V
/Texte établi et commenté par Jehan Desanges, Paris, Les
les Berbères. - Latomus, revue d'études latines, Bruxelles,
1970 RENISIO, A. - Etudes sur les dialectes berbères. -
Paris, E. Leroux, 1932. - Répertoire alphabétique des -

confédérations de tribus, des tribus, des fractions de
tribus et des agglomérations de la zone française de
l'Empire chérifen au 1er novembre 1939. - Casablanca,
1939 - 1017 p. - REYGASSE, Maurice. – Contribution à l'étude
des gravures rupestres et inscriptions tifnagh du Sahara central,
Alger, J.Carbonnel, 1932. - REYNIERS, F. Taougrat, Paris ,
Geuthner, 1930. - RI N N, Louis. - Les
Origines berbères, Alger, A. Jourdan, 1889. - ROGET,
Raymond. - Le Maroc chez les auteurs anciens - Paris,
les Belles Lettres, 1924. - SAINT-QUENTIN, Louis de.
3000 ans avec les Berbères - Paris, Delagrave, 1949.
SALLUSTE. - Bellum Jugurthinum/Texte établi par -
Alfred Ernout, Paris, les Belles Lettres, 1971. - SILIUS
ITALICUS. - La guerre punique, Tome 1, livres I-IV
Texte établi et traduit par Pierre Minoconi et Georges/
Devallet, Paris, les Belles Lettres, 1979. - TLATLI,
Salah-Eddine. - La Carthage punique - Paris, Librairie
d'Amérique et d'Orient, Maisonneuve, 1978.

بيان بشأن بعض الصور المدرجة بين صفحات هذا الكتاب بعض الصور المدرجة بين صفحات هذا الكتاب مقتبسة من مؤلّف «كابريال كامبس»: «Gabriel Camps أمازيغيون، Berbères Toulouse, Hespérides, 1980(وقد شجعني على هذا الاقتباس علمي أن الأستاذ «كامبس» يخدم تاريخ المغارب من أجل نشر المعرفة المستقصية للبحث عن الحقائق التاريخية).

